النبي

جبـران خليل جبـران

النبـي

THE PROPHET

BY KAHLIL GIBRAN

مـع مقـدّمـة عـامـة ودراسـة تحـليـليـة

بقلم الدكتور نزار بريك هنيدي

النبي/ جبران خليل جبران

مقدمة عامة ودراسة تحليلية: د. نزار بريك هنيدي

سنة الطباعة: ٢٠٠٩

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في:

دار ومؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار ومؤسسة رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا ـ دمشق ـ جرمانا

هاتف: ٥٦٢٧٠٦٠ ١١ ٠٠٩٦٣

فاكس: ٥٦٣٢٨٦٠ ١١ ٠٠٩٦٣

ص. ب: ٢٥٩ جرمانا

مدخل إلى أدب جبران

بقلم الشاعر
الدكتور نزار بريك هنيدي

بماذا يتميّز الأدب الحقيقي من غيره من الأعمال الكتابية؟ وما هي المعايير التي تتيح لنا الحكم على أدب ما بأنه أدب رفيع وعظيم؟ وإذا كان تذوق النص الأدبي مرهوناً للذائقة الشخصية التي تختلف بين متلق وآخر، كما أنها تتنوع وتتطور وتتغير بين بلد وآخر، وبين عصر وعصر، فكيف يتاح لنا أن نطلق حكم القيمة الموضوعي دون أن يكون هذا الحكم مشوباً بالكثير مما تمليه الأهواء الذاتية، أو تفرضه النزعات الفردية؟

نعرف تماماً كم قيل من كلام، وكم أريق من حبر، في المحاولات المستمرة للإجابة عن هذه الأسئلة التي تشكل أساس علم الأدب، ولب جميع النظريات النقدية، منذ أن اجترح الإنسان نصوصه الأدبية الأولى. وفي يقيني إنَّ هذه المحاولات لن تتوقف ما

بقــي الإنســان ينــتج الأدب ويتذوَّقُــهُ، أو بعبــارة أخــرى، مــا بقــي الإنسان محتفظاً بجوهره الأصيل.

وبالرغم من أن المدارس الأدبية المختلفة، قد وضعت عدداً من المعايير المتباينة لتقويم العمل الأدبي، إلا أن هذه المعايير لم تكتسب صفة الشمولية أو الثبات، بل بقيت نسبية، إذا قبلت بها طائفة من النقاد أو المتلقين، رفضتها أخرى، وإذا انطبقت على نص ما، فإنها لم تنطبق على نصوص أخرى، لا يستثنى من ذلك سوى معيار واحد، يكاد يجمع عليه الجميع، وما هذا المعيار سوى نجاح العمل الأدبي في امتحان الزمن.

فالنص الذي يتجاوز عصره الذي كُتِبَ فيه، ويبقى قادراً على بثّ المتعة الأدبية، وجذب جمهور القراء، بعد انقضاء الشــروط الزمانيــة والمكانيــة الــتي كانــت تحكــم ظــروف إنتاجه، هو النص العظيم بامتياز. ذلك أن الزمن هو الغربال الحقيقي والحكم الفصل في قيمةِ أدبيّةِ أي عملٍ كتابيّ.

ومما لاشكَّ فيه، إنَّ أعمال جبران خليل جبران، من هذه الأعمال التي استطاعت أن تصمد في وجه الزمن، وتنجح في امتحانه. ذلك أنها اليوم، وبعد مرور أكثر من سبعين عاماً على وفاة مبدعها، مازالت تتصدّر قوائم الكتب الأكثر مبيعاً، ومازالت دور النشر تتسابق على إعادة إصدارها بطبعات شعبية أحياناً، وطبعات فاخرة أحياناً أخرى.

كما أن أعمال جبران لم تتجاوز حدود الزمان فحسب، بل تجاوزت حدود المكان أيضاً، فهي اليوم مقروءة في جميع بقاع الأرض، بعد أن تمت ترجمتها إلى معظم لغات العالم.

واعتماداً على هذا المعيار الذي قلّما يخطئ، فإن المهمة الملقاة اليوم على عاتق النقاد والباحثين الذين يدرسون أعمال جبران، تتخطّى مسألة إطلاق حكم القيمة عليه، إلى ما هو أهم من ذلك بكثير، وهو محاولة سبر أغوار الأدب الجبراني للوقوف على الخصائص الأصيلة التي يتميز بها، واستقراء العوامل التي جعلته قادراً على ملامسة الجوانب الأكثر عمقاً وشفافيّة في الجوهر الإنساني.

ولما كان إبداع جبران خليل جبران لا يمكن فصله عن الحياة الاستثنائية التي آثر أن يعيشها كفنان استثنائي، فلا بد لنا من وقفة قصيرة مع فصول سيرته التي كانت مصدر إلهامه في الكثير من أعماله.

سيرة جبران:

ولد جبران خليل جبران في السادس من كانون الثاني عام١٨٨٣ في مدينة صغيرة تقع فوق وادي قاديشا في شمال لبنان، تدعى (بشري). ومن الطريف أن جبران الذي كان يؤمن

أوثق الإيمان بالتقمّص (على حد قول ميخائيل نعيمة) ما كان يحسب ولادته في شمالي لبنان مصادفة عمياء، بل كان يعتقدها نتيجة لازمة لحياة سابقة.

ذاق جبران منذ طفولته طعم الفقر والقهر، فأبوه الذي نأى بالخمر عن شؤون الأسرة، كان يعمل في عد الأغنام والماعز في الجرود لجباية الرسوم عليها، وقد أوقف بتهمة الاختلاس، فاحتجزت أملاكه وفرضت عليه الإقامة الجبرية في مركز قريب من المحكمة، مما اضطر والدة جبران (السيدة كاملة) أن تترك زوجها ووطنها، وتهرب بأولادها الأربعة من الذل والهوان مهاجرة بهم إلى مدينة (بوسطن) في الولايات المتحدة الأمريكية.

ووالدة جبران كانت سيدة ذكية وقوية، تركت تأثيراً بالغاً وعميقاً في حياته وشخصيته، وقد وصفها في إحدى رسائله إلى (مي زيادة) بقوله: (كانت محبوبة في محيطها، ما عهدتها في أدنى درجاتها أقل من شقيقة، و لا في أعلى درجاتها أقل من سيدة، لقد أفهمتني وأنا بعد في الثالثة، أن الرابطة بيننا هي كما بين صديقين، رابطة حب متبادل، وأننا كائنان مستقلان جمعتهما يد الحياة الشريفة، كانت أعجب كائن عرفته في حياتي).

وفي (بوسطن) بدأت الوالدة في العمل هي وابنها البكر (بطرس). أما جبران فقد ألحق بمدرسة شعبية وبدأ تعلم اللغة الإنكليزية. ولفتت موهبة جبران في الرسم انتباه إحدى معلماته التي كتبت إلى صديقها المثقف الثري (فريد هولاند داي) طالبة منه الاعتناء بجبران، وأعجب الفنان الثري بهذا الفتى الشرقي الذي يمتح رسومه من معين الطبيعة البكر، فتعهده بالتعليم والرعاية، وعَرَّفَهُ بعدد من الفنانين والأدباء، كما أسند إليه مهمة رسم أغلفة عدد من الكتب التي تنشرها دار (كويلا اند داي) ليجني منها بعض ما يسد نفقاته.

إلا أن جبران بقي يطمح إلى الدراسة في لبنان وبلغته العربية، فوفَّرَتْ له أمه ما يكفل له العودة إلى وطنه الذي وصل إليه أوائل خريف عام ١٩٨٩، وانتسب إلى مدرسة (الحكمة) ليدرس اللغة العربية وآدابها.

وقد روى الخوري (يوسف الحداد) وكان أستاذ البيان في المدرسة أن جبران جاءه يشكو وضعه في الصف الابتدائي رغم ما حَصَّلَهُ من معرفة باللغة الإنكليزية وإتقان لفن الرسم، فقال له الخوري (ألا تعلم أن السلّم يرقى درجة درجة)، فما كان من جبران إلا أن يردّ بقوله (بلى، ولكن هل يجهل الأستاذ أن الطائر لا ينتظر السلّم في طيرانه)، فاقشعر بدن

الخوري الذي شعر أنه أمام عقلية بارزة في فتى له حكمة الشيوخ.

وفي مدرسة الحكمة نهل جبران من معين التراث العربي، فقرأ كليلة ودمنة، ونهج البلاغة، وديوان المتنبي، بالإضافة إلى التوراة والإنجيل.

أما عطلته الصيفية فكان يقضيها في بلدته (بشري) رغم أنه لم يستطع التواصل مع والده الذي كان قد انتهى إلى حالة من البؤس والفقر جعلته لا يقدّر موهبة ابنه، فوجد جبران عزاءه في الطبيعة وفي صداقته لأستاذه في مرحلة الطفولة (سليم الضاهر) وفي رعاية أحد الوجهاء الذي يدعى (طنوس الضاهر)، والذي سوف تنشأ علاقة عاطفية بين ابنته حلا وبين جبران، أعاد جبران استيحاءها بعد عشر سنوات في قصة (الأجنحة المتكسرة).

إلا أن الزمن أبى إلا أن ينغّص على جبران ما بدأ يشعر به من إلفة واطمئنان، ففي نيسان١٩٠٢ بلغه خبر وفاة أخته (سلطانة) مما اضطره إلى ترك دراسته، والعودة سريعاً إلى (بوسطن). وهناك وجد أخاه (بطرس) مصاباً بمرض السل. ثم لم تلبث أمه أيضاً أن أصيبت بالمرض،وانتابتها حالة من اليأس والقنوط، فراح جبران يكتب لها بعض الخواطر التي يمكن

أن تشدّ من أزرها بالرغم من أنه هو نفسه كان في تلك الفترة شديد الاضطراب. وقد كتبت صديقته (جوزفين) في مفكرتها واصفة حالته في تلك المرحلة: (جاءني جبران بالغ التعاسة، إنني أعرف في أعماق قلبي ما يقاسي من عذاب، وإنني فخورة بهذا العبقري الذي استقوى على واقعه).

وسرعان ما قضى المرض على أخيه (بطرس)، وما هي إلا أيام معدودات حتى لحقت به أمه، فعظمت المصيبة على جبران الذي قال في وفاتها: (ما بكيت عليها لأنها أمي وحسب، بل لأنها صديقتي. لقد كانت حكيمة فوق كل حكمة. إنها أعذب ما تحدثت به الشفاه البشرية: يا أمي، تلك الكلمة الصغيرة الكبيرة والمملوءة بالأمل والحب).

ورغم أن الحب الذي جمع جبران مع الشاعرة الأمريكية (جوزفين بيبودي)، كان عزاء جبران في تلك المرحلة، إلا أن جوزفين أيضاً لم تلبث أن وضعت حدّاً لهذه العلاقة بزواجها من رجل ثري يختلف عن جبران الذي كان فقيراً وأصغر سناً منها، ولم يبق من ذلك الحب سوى ما سوف يفوح فيما بعد من صفحات كتاب (دمعة وابتسامة).

وبعد هذه الصدمات المتوالية، تفرّغ جبران لرسومه وكتاباته، فأقام معرضاً للوحاته ترك انطباعاً جيداً. وكان

من بين زوّار المعرض ابنة رجل سياسي معروف، سوف يكون لها شأن هام في حياة جبران، وتدعى (ماري هاسكل). وقد بلغ إعجابها بلوحاته أن دعته إلى عرضها في المدرسة الخاصة التي تديرها. كما تعرّف في الوقت نفسه على الصحفي (أمين الغريب) الذي كان يصدر جريدة (المهاجر)، فأخذ ينشر مقالاً أسبوعياً فيها.

وأصدر جبران كتابه الأول (الموسيقا) عام ١٩٠٥، وأتبعه عام ١٩٠٦ بكتابه الثاني (عرائس المروج) الذي نشره له (أمين الغريب) في نيويورك، وبدأت كتابات جبران تلقى المزيد من الإعجاب بين قرّاء العربية لما تتضمنه من نكهة خاصة وأسلوب فريد.

وراحت العلاقة تتوطد بين جبران، وبين ماري هاسكل التي عرّفته على صديقة فرنسية اسمها (إملي ميتشل) وتعرف بـ (ميشلين) وهي التي سيتخذ منها جبران موديلاً لرسوماته، فتضطرم نار الحب مع خطوط ريشته ليعيش قصة حب جديدة. وربما كان لميشلين أثر في تعريف جبران بالشعر الفرنسي، وفي إذكاء رغبته في السفر إلى فرنسا التي كانت تعج بحركة فنية تنطلق منها الحركات الفنية الحديثة.

وربما كانت ميشلين نفسها هي التي أهدى إليها جبران كتابه الثالث (الأرواح المتمردة) الذي صدر عام ١٩٠٨ والذي صدّره بالتقديم التالي: (إلى الروح التي عانقت روحي، إلى القلب الذي سكب أسراره في قلبي، إلى اليد التي أوقدت شعلة عواطفي أرفع هذا الكتاب).

وما كان من ماري هاسكل أمام رغبة جبران الجامحة في السفر إلى باريس، إلا أن وافقت على إرساله على نفقتها، فسافر في تموز١٩٠٨ حيث كانت ميشلين في انتظاره. ودخل جبران أكاديمية (جوليان) وتعلم أصول الرسم على يد الرسام جان بول لورنس، لأنه كان قبل ذلك يرسم معتمداً على فطرته دون أية دراسة أكاديمية، وهو ما عبر عنه بقوله (كنت في الظلام، والآن أشعر أنني أسير في الغسق نحو النور).

وخلال وجوده في باريس، لم ينقطع عن مراسلة (ماري هاسكل) بالرغم من وجود ميشلين إلى جانبه، بل إنه يقول لماري في إحدى رسائله (ميشلين الحلوة هي أم صغيرة عزيزة وطفلة صغيرة عزيزة، إنها في الواقع عون).

ولما اشتدّ به المرض آثر أن يعود إلى جانب ماري هاسكل طالباً منها الزواج، ورغم حبها لجبران وإعجابها به، إلا أنها رفضت عرض الزواج كي لا تحدّ من طموحه الإبداعي،

وكـان لها أن أرسـلته إلى نيويـورك ليتعـرف علـى الأدبـاء العـرب فيها وعلى رأسهم (أمين الريحاني).

وفي نيويـورك عرضـت لوحـات جـبران، وفي سـنة ١٩١٢ أصـدر روايتـه (الأجنحـة المتكسـرة) وأهـداها (إلى الـتي تحـدق بالشـمس بأجفـان جامـدة، وتقـبض علـى النـار بأصـابع غـير مرتشعة، وتسـمع نغمـة الـروح الكلـي مـن وراء ضـجيج العميـان وصـراخهم، إلى مـاري هاسـكل)، وبعـد سـنتين صـدر كتابـه (دمعة وابتسامة).

وفي هذه المرحلة بدأت تلك العلاقة النادرة بينه وبـين الأديبـة (مي زيادة) عبر الرسائل التي لم تنقطع بينهما حتى وفاته.

ومنذ سنة ١٩١٢ بدا جبران أكثر التحاماً مع قضـايا وطنـه الـذي يعـاني وطـأة الاحـتلال العثمـاني، فكتـب المقـالات الـتي تـدعو العـرب إلى الاتحـاد لمقاومـة العثمـانيين، وحـين عمّـت المجاعة لبنان سنة١٩١٦ كتب نصّه (مات أهلـي) كمـا اشـترك في حملة لجمع التبرعات.

وفي عام ١٩٢٠ أسـس جبران مـع ميخائيـل نعيمـة وإيليـا أبـي ماضـي وأمـين الريحـاني وآخـرين (الرابطـة القلميـة) وانتخـب جـبران رئيسـاً لهـا. وقـد أصـدر عـام ١٩١٩ قصـيدة (المواكـب) وهـي القصـيدة الوحيـدة الـتي اعتمـد فيهـا الـوزن والقافيـة. ثـم

أصدر عام ١٩٢٠ كتابه (العواصف)، وفي عام ١٩٢٣ نشرت له مكتبة العرب في مصر كتاب (البدائع والطرائف).

وكان جبران قد أتقن اللغة الإنكليزية بفضل علاقته مع ماري هاسكل، التي استمرت في مراجعة ما يكتبه بالإنكليزية حتى بعد أن غادرت بوسطن وتزوجت. وقد أصدر جبران كتاب (المجنون) عام١٩١٨ باللغة الإنكليزية وأتبعه عام١٩٢٠ بكتاب (السابق) وعام١٩٢٣ صدر كتابه (النبي) الذي سرعان ما أصبح أكثر الكتب مبيعاً في الولايات المتحدة.

وفي سنة ١٩٢٥ التقى مع الشاعرة الأمريكية (باربرة يونغ) التي أصبحت سكرتيرته الخاصة، وكان قد اتجه نهائياً إلى الكتابة بالإنكليزية. فأصدر كتاب (رمل وزبد) عام ١٩٢٦، وكتاب (يسوع بن الإنسان) عام ١٩٢٧، و(آلهة الأرض) عام ١٩٣٠، و(التائه) سنة ١٩٣١ وكتب فصولاً من كتاب (حديقة النبي) التي سوف تعمل سكرتيرته على إتمامه ونشره بعد وفاته، ففي ربيع ١٩٣١ اشتدت عليه وطأة المرض، فنقلته سكرتيرته إلى المستشفى حيث ودّع الحياة في العاشر من نيسان، وتلبية لوصيته تم نقل جثمانه إلى بلدته (بشري) حيث رقد رقدته الأخيرة.

عوامل التكوين:

شكّلت أعمال جبران خليل جبران منعطفاً جديداً في تاريخ الثقافة العربية، وعلامة فارقة في الأدب العالمي كله، وكان ذلك نتيجة لتضافر مجموعة من العوامل:

منها ما كان مركوزاً في عمق شخصيته، التي تجنح نحو مثالية طهرانية، لا تعترف بالإنسان إلا متعبداً في محراب القيم العليا من خير ومحبة وعدالة وجمال.

ومنها ما كان نتيجة للواقع الذي عاشه في طفولته في لبنان، حيث أدرك بحسه المرهف النافذ مدى الانفصام الحاصل بين فتنة الطبيعة الخلابة، وبين قسوة علاقات الحياة اليومية بين البشر، فاختار الانحياز إلى الطبيعة وسحرها، وآمن أن في الطبيعة قوى أكثر جدارة بإضفاء المعنى على الوجود البشري، من تلك القوى المادية التي تستهلك روح الإنسان وجسده. وربما كان هذا هو السبب الحقيقي وراء اعتناقه لفكرة التقمّص منذ المراحل المبكرة من حياته. وهو السبب أيضاً وراء تلك الرومانسية الطاغية التي ترى في عالم الغاب الجنَّةَ الوعودة، حيث لا شرور ولا آثام وليس سوى المحبة والجمال، وهذا ما يفسّر ولعه الشديد بتلك (التيمة) البلاغية

الأثيرة التي قلما يخلو منها نص من نصوصه، وهي تجسيد الطبيعة وموجوداتها ككائنات تفيض بالحياة.

ولا ريب في أن ما ورثه جبران من الثقافة العربية يشكّل لبنة رئيسة من لبنات المعمار الجبراني. فقد قرأ الشعر العربي والفلسفة العربية، فأعجب بابن الفارض الذي قال عنه (في شعره ما لم يحلم به الأولون ولم يبلغه المتأخرون). كما فتنته قصيدة ابن سينا في النفس التي يقول عنها: (ليس بين ما نظمه الأقدمون قصيدة أدنى إلى معتقدي، وأقرب إلى ميولي النفسية من قصيدة ابن سينا في النفس). وبعد أن يقارن بينها وبين أبيات لشكسبير وشيللي وغوته وبراونن يقرر أن (الشيخ الرئيس قد تقدم جميع هؤلاء بقرون عديدة، فوضع في قصيدة واحدة ما هبط بصور متقطعة على أفكار مختلفة في أزمنة مختلفة، وهذا ما يجعله نابغة لعصره وللعصور التي جاءت بعده).

كما يبدي إعجابه بالغزالي الذي يعتبره (أقرب إلى جواهر الأمور وأسرارها من القديس أوغوسطينوس).

إلا أن أهم ما ورثه جبران عن الثقافة العربية والشرقية هو تَمَثُّلُهُ لشخصية المخلّص أو (النبي) ولغته ومواقفه. وهو ما يعبّر عنه جبران في إحدى رسائله إلى ماري هاسكل عام١٩٢٩ حيث يقول (إن الطموح الجوهري للشرقي العظيم هو أن يكون نبيّاً).

غير أن الجبرانيّة (على حد تعبير أدونيس في كتابه الثابت والمتحول) هي، جوهرياً، نبوة إنسانية، ويضيف أدونيس (إن الفرق بين النبوة الإلهية والنبوة الجبرانية هي أن النبي في الأولى ينفذ إرادة الله المسبقة، الموحاة، ويعلم الناس ما أوحي له، ويقنعهم به. أما جبران، فيحاول على العكس، أن يفرض رؤياه الخاصة على الأحداث والأشياء، أي وحيه الخاص، وحين نفرغ النبوة من دلالتها الإلهية، نجد أنها الطريقة والغاية لنتاج جبران كله. فجبران يقدم مفهوماً جديداً، ضمن تراث الكتابة الأدبية العربية، للإنسان والحياة).

ولا بدّ من ذكر عامل آخر شديد الأهمية من عوامل التكوين الجبراني، يتجلى فيما نهله جبران من معين الثقافة الغربية ليتمثّله ويصهره مع المكوّنات الأخرى لشخصيته وإبداعه.

وحسبنا هنا أن نشير إلى تأثّر جبران بنيتشه وكتابه (هكذا تكلم زرادشت) الذي اعتبره جبران (من أعظم ما عرفته كل العصور)، كما نشير إلى إعجابه بشكسبير وشيللي لأنهما تحررا من (ربقة الماضي)، وكذلك (وليم بليك) الذي يقول عنه: (لن يتسنى لأي امرئ أن يتفهّم بليك عن طريق العقل، فعالمه لا يمكن أن تراه إلا عين العين).

بنية الأدب الجبراني:

أما بنية الأدب الجبراني، فتتألف من مزيج من العناصر الرومانسية والواقعية والصوفية والثورية والحداثية، التي استطاع جبران أن يؤالف بينها في توليفة سحرية، لا تتأتى إلا لمبدع كبير حقاً. فأدبه رومانسي وواقعي وصوفي وثوري وحداثي في الوقت نفسه، وإذا كنّا سنفصل بين هذه العناصر فيما يأتي، فما ذلك إلا لغرض دراسي بحت نهدف منه إلى التدليل على وجودها. أما كيف تتجدل هذه الخيوط وتتفاعل فيما بينها لتتماهى في النسيج الأدبي لنصوصه، فذلك هو سرّ هذه النكهة الخاصة التي تمنح أعمال جبران فرادتها وخصوصيتها.

الرومانسية

تتجلّى (رومانسية جبران) أكثر ما تتجلّى في تمجيده للإنسان، الذي لا يراه محور الكون، ولبَّ الوجود وحسب، بل إنه يرفعه إلى مصاف الألوهية، إذ إنّ (الإنسانية روح الألوهية على الأرض) على حد تعبيره في نصه (صوت الشاعر).وهو يقول في (نشيد الإنسان): (أنا كنت منذ الأزل، وها أنا ذا، وسأكون إلى آخر الدهر، وليس لكياني انقضاء).

كما يقول في موضع آخر: (على أنني وجدت بين هذه النكبات المخيفة، والرزايا الهائلة ألوهية الإنسان واقفة كالجبّار تسخر بحماقة الأرض وغضب العناصر، ومثل عمود نور منتصبة بين خرائب بابل ونينوى وتدمر وبمباي وسان فرانسيسكو ترتّل أنشودة الخلود قائلة: لتأخذ الأرض مالها، فلا نهاية لي).

ومن مظاهر رومانسيته أيضاً الاحتفاء بالطبيعة وتمجيد عناصرها، فهي الجنة التي ليس فيها حزن ولا ألم ولا ظلم:

ليس في الغابات حزن	لا ولا فيها الهموم
فإذا هبّ نسيم	لم تجئ معه السموم
ليس في الغابات حرّ	لا ولا العبد الذميم
إنما الأمجاد سخف	وفقاقيع تعوم
لم أجد في الغاب فرقاً	بين نفس وجسد
فالهوا ماء تهادى	والندى ماء ركد

بل ربما كان جبران قد وصل في بعض أبيات هذه القصيدة إلى كتابة أبلغ ما يطمح إليه الرومانسيون في التعبير عن

تعبّدهم في محراب الطبيعة، ودعوة الناس إلى العودة إلى أحضانها:

هل تحمّمتَ بعطرٍ وتنشّفتَ بنور

وشربت الفجر خمراً في كؤوس من أثير

هل فَرَشْتَ العشبَ ليلاً وتَلَحَفّتَ الفضا

زاهداً فيما سيأتي ناسياً ما قد مضى؟

ومن تجليات رومانسيته أيضاً تغنّيه الدائم بالحزن والألم والوحدة، ووَلَعُهُ بمناجاة الليل والقمر والبحر والريح والضباب والسكون والصمت، وشغفه بتجسيد موجودات الطبيعة، وتشخيص العواطف البشرية، وتحويل الكثير من صفحات كتبه إلى مسارح تصول وتجول فيها الأرواح والأشباح والجنيات والساحرات. اسمعه في مقطوعته (أيها الليل) يقول: (ياليل العشاق والشعراء والمنشدين، يا ليل الأشباح والأرواح والأخيلة، يا ليل الشوق والصبابة والتذكار. أيها الجبّار الواقف بين أقزام غيوم المغرب وعرائس الفجر، المتقلّد سيف الرهبة، المتوّج بالقمر، المتّشح بثوب السكوت، الناظر بألف عين إلى أعماق الحياة، المصغي بألف أذن إلى أنّة الموت والعدم).

الواقعيّة

وتبدو (واقعيّة) جبران واضحة في قراءته المتعمّقة لأحوال الواقع، وما يعجّ به من مآس ومظالم وآلام، ومعالجته لكل ذلك في قصصه وكتاباته، مشخصّاً العلّة في كل حالة، وداعياً إلى مجابهتها ومقاومتها، في سبيل تنقية العالم من الشرور والآثام، وجعله أكثر جدارة بالإنسان.

فهو يبني قصته (مرتا البانية) على مقولة أن المرأة الداعرة، قد لا تكون سوى فتاة فقيرة سحقها الظلم الاجتماعي ورمى بها الفقر والحرمان إلى الدرك الذي آلت إليه. لذلك يقول لها جبران: (إي يا مرتا، أنت زهرة مسحوقة تحت أقدام الحيوان المختبئ في الهياكل البشرية).

أما قصة (يوحنا المجنون)، فقد بناها على ما أدركه في الواقع من أن الرجال الذين يتسترون بإهاب الدين، قد لايكونون أقل وحشية وقدرة على ظلم الآخرين وسلبهم أرزاقهم وحريتهم من غيرهم من الطغاة والمجرمين.

كما ان قصة (وردة الهاني) يمكن اعتبارها المعادل الأدبي لما كان يجري – ولا يزال- في الواقع، من قهر للمرأة، وإرغامها على الزواج بمن لا تحب، لا لشيء إلا لأنه القادر على دفع الثمن. أما عواطف المرأة ومشاعرها وحقها في الاختيار فهي أمور يضرب بها المجتمع عرض الحائط، مما يؤدي إلى

تلك المآسي التي مازالت تتكرر حتى اليوم في مجتمعاتنا. وهكذا يمكن للقارئ أن يجد الأساس الواقعي لكل قصص جبران الأخرى، مثل صراخ القبور، ومضجع العروس، وخليل الكافر والأجنحة المتكسرة وغيرها.

وتتضح (واقعيّة) جبران أيضاً في تفاعله مع القضايا السياسية اليومية التي يعاني منها أبناء أمته الرازحين تحت نير الاستعمار التركي، فهو ما فتئ يحرّضهم على الثورة على الاحتلال، ويحذرهم من مغبة التعاون مع الحكم التركي، ويؤكد أن لاسبيل أمامهم لانتزاع حريتهم سوى بالاعتماد على الذات، وإن الاتحاد هو السلاح الأمضى في مواجهة أعدائهم.

وفي مقالته (الأمم وذواتها) يعيد الثقة بنهضة الذات العربية حين يقول (أما الذات العربية فقد تجوهرت وشعرت بكيانها الشخصي في القرن الثالث قبل الإسلام، ولم تتمخّض بالنبي محمد حتى انتصبت كالجبّار وثارت كالعاصفة متغلبة على كل مايقف في سبيلها، ولما بلغت العباسيين تربّعت على عرش منتصب فوق قواعد لا عداد لها أوّلها في الهند وآخرها في الأندلس، ولما بلغت عصارى نهارها وكانت الذات المغولية، قد أخذت تنمو وتمتد من الشرق إلى الغرب كرهت الذات العربية يقظتها، فنامت ولكن نوماً

خفيفاً متقطعاً، وقد تعود وتفيق ثانية لتبيّن ما كان خفيّاً في نفسها كما عادت الذات الرومانية في زمن النهضة الإيطالية المعروفة بالرنسانس).

وكان جبران يواكب جميع الأحداث التي تمرُّ بأمته، فعندما اعتقل الأتراك عدداً من الثوّار عام ١٩١١ كتب عن (الانحطاطية المطلقة) للأتراك، وحين حلّت المجاعة عام١٩١٦ كتب نص (مات أهلي)، ونص (في ظلام الليل).

كما كتب نصوصاً متعددة يحضّ فيها أبناء أمته على التخلص من كل ما يعيق نهضتهم وتحررهم، كما في نص (الأضراس المسوسة)، ونص (المخدرات والمباضع) وغيرها.

الصوفيّة

أما (صوفيّة) جبران، فنلمسها في اعتناقه للنهج العرفاني الذي يعتمد الحدس والرؤيا والبصيرة للوصول إلى المعرفة. فإذا كان العقل يرى المظهر الخارجي للأشياء عبر البصر، فإنَّ القلب يرى بالبصيرة جوهرها الأصل، ويفهم أعمق أعماقها. يقول جبران: (تلك الرؤيا، تلك البصيرة، ذلك التفهم الخاص للأشياء الذي هو أعمق من الأعماق وأعلى من الأعالي).

ولا يمكن للمرء أن يصبح رائياً حقيقياً إلا بعد أن يتخطى جدران الحاضر، ويزيل البراقع التي يسدلها الواقع على وجهه، كما أزال (المجنون) في كتاب جبران البراقع، فالتهبت نفسه بمحبة الشمس. يقول جبران (ولما فَصَلَتْ تصوّراتي بيني وبين البشريّات وأزاحت تخيّلاتي برقع المادة عن ذاتي المعنوية شعرت بنمو روحي يقرّبني من الطبيعة ويبيّن لي غوامض أسرارها ويفهمني لغة مبتدعاتها).

ومن مظاهر (صوفيته) أيضاً إيمانه بوحدة الوجود، فما الإنسان إلا بضعة من الذات الإلهية. يقول جبران على لسان علي الحسيني في (عرائس المروج): (شعر بأنّ جوهر نفسه لم يكن غير شطر من شعلة متقدة فصلها اللّٰه عن ذاته قبيل انقضاء الدهر). فاللّٰه فصل شعلة من ذاته، ومن هذه الشعلة كان جوهر النفس البشرية. كما يقول في كتابه(دمعة وابتسامة): وفصل إله الآلهة عن ذاته نفساً وابتدع فيها جمالاً..وابتسم إله الآلهة وبكى وشعر بمحبة لا حدَّ لها ولا مدى وجمع بين الإنسان ونفسه). والإنسان هو كلمة اللّٰه، كما يقول في كتابه(رمل وزبد): (تكلم اللّٰه، فكانت كلمته الأولى إنساناً). وإن أحلام الإنسان وعواطفه ما هي إلا جزء من الروح الكلي الخالد، كما جاء في قوله: (ولكن الأجيال التي تمرّ،

وتسحق أعمال الإنسان لا تفني أحلامه، ولا تضعف عواطفه.. فالأحلام والعواطف تبقى ببقاء الروح الكلي الخالد، وقد تتوارى حيناً وتهجع آونة متشبّهة بالشمس عند مجيء الليل، وبالقمر عند مجيء الصباح). وعندما يصف بطله (يوحنا) في (عرائس المروج) يقول: (ويوحنا يتألم مع الإله الإنسان بالجسد، ويتمجّد معه بالروح).

ولئن كانت غاية الصوفي أن يترفّع عن رغد الحاضر وكدره في سبيل تحقيق غايته الأسمى، وهي الاقتراب من جوار الذات الإلهية، فإن جبران يقول في (المواكب):

فإن ترفَّعتَ عن رغدٍ وعن كَدَرٍ   جاورتَ ظلَّ الذي حارَتْ به الفكرُ

كما يقول في موضع آخر(ليس الجهاد في الطبيعة سوى شوق عدم النظام إلى النظام)، ويقيناً فإن هذه العبارة تبدو، وكأنها خارجة من أحد كتب المتصوفة الكبار.

الثوريّة

وربما كانت (الثوريّة) هي السمة الأكثر نصاعة من سمات الأدب الجبراني. فجبران ثائر متمرّد لا يرى للحياة معنى إن لم تكن نضالاً دؤوباً في سبيل الحرية. فالحريّة وحدها هي التي تحقّق إنسانية الإنسان. لذلك نسمعه يتضرع في محرابها:

(من أعماق هذه الأعماق نناديك أيتها الحرية فاسمعينا. من جوانب هذه الظلمة نرفع أكفنا نحوك فانظرينا وعلى هذه الثلوج نسجد أمامك فارحمينا) ويقول في موضع آخر: (أحببت الحرية فكانت محبتي تنمو بنمو معرفتي عبودية الناس للجور والهون، وتتسع باتساع إدراكي خضوعهم للأصنام المخيفة التي نحتتها الأجيال المظلمة، ونصّبتها الجهالة المستمرة).

و لأن جبران ثائر حقيقي، فقد كان لا بدَّ له من أن يحرّض على الثورة على كل ما يستلب الحرية، أو ينتقص منها، وعلى كل من يمارس الاضطهاد والاستغلال، ويبث الآثام والشرور، ويعيق ممارسة الإنسان لحقه الطبيعي في التمتع بالخير والعدل والجمال.

ولذلك يعلن جبران ثورته على الحكّام والأمراء ورجال الدين والإقطاعيين والأغنياء الذين يتحالفون فيما بينهم ضد جماهير الفقراء والمستضعفين، وهو يرى في تحالفهم الأسود هذا (علّة مزمنة قابضة بأظفارها على عنق الجامعة البشرية).

يقول جبران: (ابن الشرف الموروث يبني قصره من أجساد الفقراء الضعفاء، والكاهن يقيم الهيكل على قبور المؤمنين المستسلمين. الأمير يقبض على ذراعيّ الفلاح المسكين والكاهن يمدّ يديه إلى جيبه. الحاكم ينظر إلى أبناء الحقول

عابساً والمطران يلتفت نحوهم مبتسماً، وبين عبوسة النمر وابتسامة الذئب يفنى القطيع. الحاكم يدّعي تمثيل الشريعة والكاهن يدّعي تمثيل الدين، وبين الاثنين تفنى الأجساد، وتضمحلّ الأرواح).

ولم يكن جبران مجرّد مصلح اجتماعي، بل كان ثوريّاً حقيقياً ومتمرّداً أصيلاً. لذلك امتدّت ثورته لتشمل كل ما من شأنه الحد من حرية الإنسان مهما بلغ من قدسية أو رسوخ. فوجد أن أسس الظلم الاجتماعي تكمن في استغلال الشريعة لتبرير السيطرة على جموع الشعب، لذلك قال (الشريعة، وما هي الشريعة؟ مَن رآها نازلة مع نور الشمس من أعماق السماء؟ وأي بشري رأى قلب الله، فعلم مشيئته في البشر؟ وفي أي جيل من الأجيال سار الملائكة بين الناس قائلين: احرموا الضعفاء نور الحياة، وافنوا الساقطين بحدّ السيف، ودوسوا الخطاة بأقدام من حديد؟).

كما ثار على العادات والتقاليد، ورأى أن التمسك بموروث الماضي البالي ما هو إلا موت حقيقي. يقول جبران: (ان بليّة الأبناء في هبات الآباء، ومن لا يحرم نفسه من عطايا آبائه وأجداده يظل عبد الأموات حتى يصير من الأموات) كما يقول: (وأغرب ما لقيت من أنواع العبوديات، وأشكالها العبودية العمياء، وهي التي توثق حاضر الناس بماضي آبائهم، وتنيخ

نفوسهم أمام تقاليد جدودهم، وتجعلهم أجساداً جديدة لأرواح عتيقة، وقبوراً مكلسة لعظام بالية).

وتتجلى ثوريّة جبران في مواقفه السياسية، ولاسيما في دعوته أبناء أمته إلى الثورة من أجل التحرر من النير العثماني. فهو يقول في رسالة له إلى ماري هاسكل عام١٩١١ بعد أن بلغته أخبار من سورية بوجود من يدعو إلى التعاون مع الحكم التركي: (أحاول أن أبشّر السوريين الذين يعتمدون على الحكم الجديد في تركيا، بأن يعتمدوا على الذات.. أريدهم أن يعرفوا أن عرش السلطان الجبار مبني على رمل رطب. لماذا يركعون أمام صنم ملوث مادام أمامهم فضاء لا حدَّ له).

وحين عقد مؤتمر باريس لبحث قضيّة الحكم الذاتي في سورية، وكان من المقرّر حضور جبران هذا المؤتمر كمندوب عن السوريين في أمريكا، رفض الحضور، لأن وجهة نظره كانت رفض الدبلوماسية التي لن تؤدي إلا إلى وضع سورية، والبلاد العربية تحت حماية أجنبية جديدة. ويؤكد جبران أن ليس أمام العرب سوى أن يعلنوا الثورة، فبالثورة وحدها يمكن لهم أن ينتصروا.

وفي معالجة جبران للعلل التي تعاني منها الأمة كان يرفض أيضاً أي منهج إصلاحي فهو يقول: (في فم الأمة السورية أضراس بالية سوداء قذرة ذات رائحة كريهة، وقد حاول

أطباؤنا تطهيرها وحشوها بالميناء، وإلباس خارجها رقوق الذهب، ولكنها لاتشفى، ولن تشفى بغير الاستئصال).

وحين قامت الثورة السوفياتية الاشتراكية أعلن فرحه، وقال في رسالة إلى (ماري هاسكل) سنة١٩١٧: (إن الذات العتيقة للجنس البشري آخذة في الموت السريع، والذات الجديدة آخذة بالانبثاق كجبّار فتي). وقال (وجميع القياصرة، وجميع الأباطرة في العالم كله لن يستطيعوا أن يجعلوا الزمن يمشي إلى الخلف).

الحداثة

أما حداثة جبران فلا تقتصر على ما قام به من هدم لأفكار الماضي البالية، التي تكبّل الإنسان وتعيق تقدمه وتطوره، ومن زعزعة للأسس التي يقوم عليها الاستغلال والاضطهاد، ومن تبشير برؤيا جديدة يصبح فيها الإنسان سيّد مصيره، وسيّد الطبيعة من حوله، رؤيا تقوم على الحريّة والحب والعدل والجمال. بل إن أية نظرة إلى الإنجاز الجبراني تبقى ناقصة إذا لم تدرك أنه كان إيذاناً بثورة الحداثة التي سوف تنقل الكتابة العربية من حال إلى حال، أو كما يقول (أدونيس): (تبقى أهمية جبران الأولى في أنه سلك طريقاً لم

تعرفها الكتابة العربية.. فلم تعد الكتابة العربية، بدءاً منه، تتأمل ذاتها في المرايا اللفظية، بل أصبحت تنغمس في العذاب والبحث، والتطلع، ومن هنا امتلأت بالحيوية..). ولذلك يعتبره أدونيس (مؤسساً لرؤيا الحداثة، ورائداً أوّل في التعبير عنها).

تقوم حداثة جبران على رفضه للمفهوم التقليدي للشعر، فالشاعر ليس من يستخدم الكلام العادي، ويصبّه في قالب مسبق الصنع ليصف مظاهر الأشياء. وهو ليس من يلمُّ المعاني المطروحة على قارعة الطريق ليتخيّر لها الألفاظ المناسبة، ويجّود في سبكها، ويقيم لها وزنها. بل الشاعر هو من يرى ما وراء الأشياء، ويغوص إلى الأعماق. هو من (يغمض عينيه عن الدنيا ليرى ما وراء الدنيا، ويغلق أذنيه عن ضجة الأرض ليسمع أغاني اللانهاية) حسب وصف جبران لابن الفارض.

والشعر هو قول ما لا يمكن للغة الكلام العادية أن تقوله، وهو ما يعبّر عنه جبران في العبارة التالية: (في أعماق نفسي أغنية لا ترتضي الألفاظ ثوباً. أغنية تقطن حبّة قلبي، فلا تريد أن تسيل مع الحبر على الورق). فلغة الكلام العادية لا يمكن أن تصلح للتعبير عما يحسّه الشاعر ويراه. لذلك لا بدّ لكل شاعر من أن يخلق لغته الخاصة به، وهو ما أدركه جبران فقال: (ففي العربية خلقت لغة جديدة داخل لغة قديمة،

كانت قد وصلت حداً بالغاً من الكمال. لم أبتدع مفردات جديدة بالطبع، بل تعابير جديدة واستعمالات جديدة لعناصر اللغة).

وكما أن لغة الكلام العادية لا تصلح للشعر، فكذلك لا يوجد شكل محدد يمكن له أن يحتوي ما يفجّره الشعر من كشوف ورؤى. فمجال الشعر هو: (الشيء الآخر الأبعد في الإنسان، الشيء الذي لا نفهمه، والذي نسعى لأن نجد شكلاً يعبّر عنه، ولم نجده حتى الآن). حسب تعبيره.

وهكذا كان لا بدّ لجبران من أن يسخر من هؤلاء الذين يعتمدون القوالب الجاهزة والصيغ القديمة: (لو تخيّل الخليل أن الأوزان التي نظم عقودها، وأحكم أوصالها ستصير مقياساً لفضلات القرائح، وخيوطاً تعلق عليها أصداف الأفكار لنثر تلك العقود، وفصم عرى تلك الأوصال).

بل إنه يسخر حتى من هؤلاء الذين يحاولون تقليد عمالقة الشعر العربي والنسج على منوالهم، لأنهم بذلك يفتقدون أصالة التعبير عن ذواتهم، ولا ينتجون سوى نسخة ثانية باهتة لانضرة فيها ولا حياة: (ولو تنبّأ المتنبي، وافترض الفارض أن ما كتباه سيصبح مورداً لأفكار عقيمة ومقوداً لرؤوس مشاهير يومنا

لهرقـا المحـابر في محـاجر النسـيان، وحطّمـا الأقـلام بأيـدي الإهمال).

ذلـك أن المقلّـد لا يكتشـف شـيئاً، ولا يختلـق أمـراً، فهـو ذاك الذي يسير من مكـان إلى مكـان على الطريق الـتي سـار عليها ألف قافلة وقافلة على حد تعبير جبران، الذي يقول أيضـاً (فـإذا كـان الشـاعر أبـا اللغـة وأمهـا، فالمقلـد ناسـج كفنهـا وحافر قبرها).

وكــان جـبران يعــي أن ثورتـه الحداثيـة علـى الأشـكال القديمـة والصيـغ الجـاهزة والأوزان الموروثـة تهـدم لكـي تـبني، وكـان يـدرك أنـه لا بـدّ للمجـددين مـن امـتلاك مواهـب جبـارة لإنجاز حداثتهم: (أما الآن فأنا أريد الأشياء الجبـارة الـتي تـدمّر كيما تبني بناءً نبيلاً).

وأخـيراً، هـل اسـتطاع جـبران أن ينجـز فيمـا كتبـه مـن نصوص إبداعية بناء جميع أركـان الصرح الحـداثي الـذي بشّـر بـه؟ بـالطبع لا. فتلـك مهمـة منوطـة بحركـة الحداثـة العربيـة برمتها، التي مازالت تعمل على إنجازها حتى اليوم. ألم يقل هـو نفسـه: (جئـت لأقـول كلمـة وسـأقولها، وإذا أرجعـني المـوت قبـل أن ألفظهـا يقولهـا الغـد.. والـذي أقولـه الآن بلسـان واحـد يقولـه الآتـي بألسنة عديدة).

وحسب جبران أنه كان برقاً مبكّراً من البروق التي أضاءت فضاء الأدب العربي المعاصر، وأضرمت فيه نار الحداثة والإبداع.

د. نزار بريك هنيدي

النبي

دراسة تحليلّية

نبي جبران
من يوحنا المجنون إلى المصطفى

لم يعرف العصر الحديث كتاباً لمؤلف عربي، لقي من الذيوع والانتشار ما لاقاه كتاب (النبي) لجبران، منذ صدوره باللغة الإنكليزية عام ١٩٢٣، حتى اليوم. ففي عام ١٩٢٤، قال الأستاذ فرانكلين في خطبة له في مجمع الأدباء في ديترويت مشيغن: (فالنبي، مع انه طبع للمرة الأولى منذ أقل من خمسة عشر شهراً -في سبتمبر سنة١٩٢٣- فقد أعيد طبعه ثلاث مرات في هذه المدة القصيرة، مما يدل على شدة إقبال جمهور المتأدبين من الأمريكيين والإنكليز على مطالعته)[1].

---

[1] فرانكلين- خطبة له وضعت كمقدمة لكتاب (النبي) الذي نقله إلى العربية الأرشمندريت انطونيوس بشير- المطبعة العصرية –القاهرة-الطبعة الثانية- سنة١٩٣٤-الصفحة٢٩

وفي عـام ١٩٢٦ أرسـل جـبران رسـالة إلى الأرشمنـدريت انطونيوس بشير قال فيها : (كل ما أستطيع أن أقوله لك الآن في الكتاب الصغير، الذي هو جزء من حشاشتي، انه قد بلغ الطبعة العاشرة بالإنكليزية، وانه قد ترجم إلى عشر لغات أوربية والى اليابانية والهندستانية من اللغات الشرقية- والحبل على الجرار-وأما رأي القوم في الكتيّب من وودرو ولسون إلى أكبر شاعر إنكليزي، إلى اشهر كاتب فرنسي، إلى غاندي الهندي، إلى العامل البسيط، إلى الزوجة والأم، فمما لم أنتظره أو أتخيله قط. ولذلك أجد نفسي مخجولاً في بعض الأحايين أمام عطف الناس وكرمهم)[٢].

وفي آب عام ١٩٥٧ بيعت النسخة المليون من الكتاب في الولايات المتحدة الأمريكية وحدها[٣]، ومنذ ذلك الحين يقرأ الأمريكيون نصف مليون نسخة من (النبي) كل ثلاث سنوات[٤]. وقد ترجم الكتاب إلى أكثر من أربعين لغة. وتتوالى صدور طبعاته الجديدة في أنحاء العالم حتى اليوم. وللتدليل على ذلك نورد الفقرة التالية من مقالة حديثة للكاتب الصيني (الدكتور

---

[٢] كتاب (النبي) نقله إلى العربية الأرشمندريت انطونيوس بشير- المطبعة العصرية – القاهرة-الطبعة الثانية-سنة١٩٣٤-صفحة٢٩

[٣] خليل حاوي-جبران خليل جبران-دار العلم للملايين-بيروت-١٩٨٢ صفحة٢٥٦

[٤] جوزيف الخوري طوق-جبران في ذكرى غروبه الخمسينية-موسوعة جبران-دار نوبليس-بيروت-المجلد١٨-صفحة٥٢

تشينغ قوه) أستاذ مساعد جامعة الدراسات الأجنبية في بكين إذ يقول: (بالإضافة إلى ألف ليلة وليلة، كان للقراء الصينيين احتكاك بالأدب العربي الحديث أيضاً، وذلك من خلال أعمال جبران خليل جبران. وكان الأديب الشهير (ماو دون) أول صيني عرّف جبران إلى الصينيين، حيث ترجم عن الإنكليزية خمس قصائد نثرية في كتاب (السابق) ونشرها في مجلة أدبية عام ١٩٢٣، ثم قام مترجم آخر بنقل (المجنون) إلى الصينية ونشره عام ١٩٢٩. وفي عام ١٩٣١ ظهرت الترجمة الرائعة ل (النبي) التي قامت بها الأديبة المشهورة (بينغ شين) وكتبت في مقدمة الكتاب أنها أغرمت بالحكمة الشرقية الفائقة واللغة الشاعرية العجيبة في هذا الكتاب الصغير. ولحسن حظ القراء الصينيين أن تقوم أشهر أديبة صينية بترجمة أروع عمل أدبي لجبران. فلا غرابة أن شاعت هذه الترجمة في الصين وأعيدت طباعتها مرات كثيرة من يوم صدورها حتى الآن.)[٥] ويبدو أن العقد الأخير من القرن العشرين قد شهد إقبالاً شديداً على قراءة (النبي) مما جعل دور النشر العالمية تعيد طباعته عدداً من المرات، فبين يدي الآن طبعة أنيقة منه صدرت في نيودلهي في الهند عام ١٩٩٣، ومما هو مثبت في الصفحة الرابعة نفهم أن الدار قد أعادت طباعته مرتين في

---

[٥] د. تشينغ قوه-مقال بعنوان: الأدب العربي في الصين-مجلة الآداب الأجنبية-دمشق-العدد ١١١-صيف عام ٢٠٠٢-صفحة ١٤

العام نفسه[٦]، وهو ما يؤكده الكاتب الصيني تشينغ قوه أيضاً حين يقول: (ومع حلول التسعينات، شهدت ترجمة الأدب العربي في الصين ظاهرتين ساخنتين، إحداهما إقبال القراء على قراءة جبران خليل جبران، فظهرت ترجمات كثيرة لمؤلفاته..ارتفعت منزلة جبران في الصين إلى مشارف عمالقة الأدب العالميين، وصار خير من يجسّد إنجازات الأدب العربي المعاصر. ففي استفتاء أجرته صحيفة (القراءة الصينية) على القراء، يأتي كتاب (النبي) ضمن مائة أروع عمل أدبي عالمي وصيني في القرن العشرين)[٧].

وفي اللغة العربية، كان أول من قام بتعريب كتاب (النبي) هو الأرشمندريت أنطونيوس بشير عام ١٩٢٦، وتلاه ميخائيل نعيمة عام ١٩٥٦، وفي عام ١٩٦٦ ظهرت ترجمة ثروت عكاشة، ثم يوسف الخال عام ١٩٦٨، ثم نويل عبد الأحد عام ١٩٩٣. ولاشك أن تعدد الترجمات يعود إلى ثراء الكتاب وقابليته للقراءات المتعددة، فكل ترجمة هي قراءة في المآل الأخير، وكذلك إلى لغته الشعرية العالية التي تجعل من المستحيل نقله إلى لغة أخرى دون أن يفقد الكثير من إيحاءاته ومعانيه التي لا تقولها الألفاظ وحدها، وإنما تفوح من الصور التخييلية

---

[٦] the prophet-kahlil gibran-publishers distibutore ltd-new delhi - ١٩٩٣

[٧] د. تشينغ قوه- مجلة الآداب الآجنبية- العدد١١١-دمشق صيف٢٠٠٢-الصفحة١٧

والتراكيب اللغوية والنغم والايقاع وغيرها من الخصائص الشعرية، التي تمكّن النص من حمل ما ينوء بحمله في الحالة التي يؤول إليها بعد الترجمة، مهما كانت هذه الترجمة أمينة ودقيقة. وهو الأمر الذي أدركه جميع من قاموا بتعريب الكتاب. فالأرشمندريت أنطونيوس بشير في مقدمة ترجمته، يلفت نظر القراء إلى أن (جبران يصوّر فكره قبل أن يعبّر عنه بالألفاظ، لأنه من نوابغ المصورين، لذلك فليعْنَ القارئ بدرس صورة كل فكرةٍ من أفكار المؤلف قبل أن يدرس الألفاظ التي تعبّر عنها)[٨].

أما (ميخائيل نعيمة) فقد قال في مقدمة ترجمته للكتاب: (وترجمة كتاب من طراز النبي ليست من السهولة في شيء. بل إنها من المشقة بمكان. فالكتاب يزخر بالتلوين الشعري، والإيقاع الموسيقي، والإيماءات الرمزية، والاستعارات المبتكرة، إلى جانب ما فيه من تصوير الأفكار والأحاسيس المبهمة تصويراً أقل ما يقال فيه انه ليس مألوفاً. ولا أقول إن جبران كان يتعمّد الإبهام. بل كان يعتقد أن من الأفكار والأحاسيس ما يتعذّر نقله إلا بالتلميح وإلا بالرموز..إلا أن

[٨] أنطونيوس بشير-مقدمة ترجمته لكتاب النبي-المطبعة العصرية-القاهرة-الطبعة الثانية-سنة١٩٣٤-صفحة١٣

المترجـم، إذا فاتـه نقـل تلـك اللطـائف كمـا وردت في الأصـل، فيجب أن لا يفوته التدليل عليها في الترجمة..)[٩].

وبالـرغم من أن الأسـتاذ (نويـل عبـد الأحـد) يعترف لنعيمـة بأنه (أقرب المترجمين إلى جبران، كمـا أن كفاءتـه لا يأتيهـا الباطل من أمامها أو ورائهـا)[١٠]، إلا انـه يـرى (أن نعيمـة اهـتمّ بمعـاني الكلمـات القاموسـية لا بـدلالاتها كإشـارات ورمـوز وعلامات)[١١]، ـويدلّل على رأيه ذلك بأن يورد عدداً كبيراً من عبـارات الكتـاب في الأصـل الإنكليـزي مبينـاَ عـدم كفـاءة ترجمـة نعيمـة في نقـل مغزاهـا الحقيقـي، ممـا دفعـه، بعـد مـا اكتشفه وما جمعه من ملاحظات عبر معاودتـه قـراءة النبي، وترجماتـه المختلفـة، إلى القيـام بترجمـة جديـدة يتـوخّى منهـا الـذهاب إلى جـوهر الفكـر الجبرانـي في (الـنبي)، حسـب قوله[١٢]. كما قال ثروت عكاشة في مقدمة الطبعة الثالثة من ترجمته للكتاب: (وإنـي إذ أقدمـه إلى قـراء العربيـة في طبعتـه الثالثة لا أقول إني قدمته صورة من طبعتيه الأولى والثانية، بل

---

[٩] ميخائيل نعيمة – مقدمة ترجمته لكتاب النبي-مؤسسة نوفل-بيروت-صفحة١٠

[١٠] نويل عبد الأحد-النبي لجبران في صياغة جديدة-المؤسسة العربية للدراسات والنشر-بيروت-١٩٣٣-الصفحة٢٠

[١١] المرجع السابق –صفحة٨

[١٢] نويل عبد الأحد-مرجع سابق-صفحة٢٠

لقد عنّ لي في مواضع منه رأي في الترجمة وجدته أولى فبدلته على النحو الذي بدا لي أصلح من سابقه.. وما أستطيع أن أختم كلمتي دون الاعتراف بفضل النقاد الذين أعانني نقدهم على إعادة فقرات لتخرج أكثر استقامة وأكثر قدرة على الوفاء بالمعنى)[١٣].

ولاشك أن ذلك كله يؤكد القدرة المحدودة للترجمة في نقل كل ما يتضمّنه الكتاب وما يفوح من لغته ورموزه وتخييلاته وإيقاعاته من الإيحاءات والصور والمعاني، وهو ما قصده (ميخائيل نعيمة) حين تمنى لو أن جبران تولى ترجمة مؤلفاته الإنكليزية –أو النبي في الأقل- بأسلوبه الذي تفرّد به بين كتاب العربية. إلا أنه آثر أن يترك أمر الترجمة لغيره[١٤].

ولا شكّ أن (ماري هاسكل) قد لعبت دوراً مهماً في مساعدة جبران على صياغة فصول كتاب (النبي) باللغة الإنكليزية، فقد كانت تعليقاتها عليه فصلاً فصلاً ومرحلة

---

[١٣] ثروت عكاشة- مقدمة ترجمته لكتاب النبي-دمشق-دار طلاس-٢٠٠٠-صفحة٦٣

[١٤] ميخائيل نعيمة-المرجع السابق- صفحة٩

مرحلة، على جانب كبير من الأهمية، لذلك يقول لها في إحدى رسائله (لا يستطيع أحد أن يكتب النبي بدونك أنت)[١٥].

كما يبدو من الرسائل المتبادلة بينهما، أن جبران بدأ كتابة مسوّدات عدد من فصول النبي باللغة العربية، فهو يقول لها في رسالة تعود إلى عام ١٩١٩ أنه (عثر على قطعة شعرية كان قد كتبها وله من العمر ستة عشر عاماً، هي الجنين الذي أضحى الآن (النبي). ووصف لها فحواها: جمع من الناس في نزل يتحدثون عن أشياء كثيرة مختلفة- واحد منهم بشكل خاص يختلف مع الباقين- ويعطي فلسفته عن الطعام وعن الأشياء المختلفة. ثم ينصرفون ويتفرقون، والبث أنا مع الرجل كيما استدرجه لإبداء آرائه. ونخرج ونتمشى في الحقول، ونقابل جمعاً من الفلاحين، ويدلي لهم بمواعظ صغيرة. ترين أن الفكرة التي عندي الآن في (النبي) موجودة هناك)[١٦].

ويقول لها في رسالة أخرى: (انه صرف سني حياته السبع والثلاثين جميعها ليضع ذلك الكتاب، ويقول ان كيانه كله

---

[١٥] ماذا بين جبران وماري هاسكل-رسائل وذكريات-موسوعة جبران-دار نوبليس-بيروت-١٩٩٧-المجلد الثالث والعشرون-صفحة٤٦

[١٦] توفيق صايغ-أضواء جديدة على جبران-دار رياض الريس-الطبعة الثانية-لندن-١٩٩٠-صفحة٢٨٥

متضمن الآن في (النبي) وان هـذا سيكون حياتـه إلى أن ينتهي (ان كل ما فعلته قد انتهى الآن بالنسبة لـي، ولم يكـن سوى تلمذة بالنسبة لهذا الكتاب) ويكرر انه كان ينشد النبي منذ كان في الرابعة عشرة أو السادسة عشرة، وانه الآن فقط يراه ويعي ما فيه من حقائق[١٧].

وإذا كان (النبي) قد صدر بلغته الإنكليزية عام ١٩٢٣، فقد بدأ جبران كتابته قبل ذلك بأحد عشر عاماً، حسب ما ترويه (ماري هاسكل) في نبذة من مذكراتها التي تعود إلى حزيران عام ١٩١٢، إذ تقول (اليوم كتب خليل السطر الأول، أو الفكرة الأولى بالأحرى، لاله الجزيرة-وتقول موضحة في الهامش: المصطفى في (النبي)-وتضيف: ذلك انه قرّر نهائياً أن يجعل هذا المنفي البروميثي اله جزيرة بدلاً من اله جبل، وتقول ان جبران فسّر ذلك بقوله: (باستطاعتي أن أضع جبلاً في الجزيرة، ولكن ليس في استطاعتي أن أضع جزيرة على الجبل. والجزيرة تفتح إمكانات كثيرة، خاصة إذا كانت قريبة إلى اليابسة بحيث يمكن مشاهدة مدينة منها). وتؤكد ماري هاسكل اهتمام جبران الكبير الذي كان يوليه لهذا الكتاب بالذات فتقول: (هذا هو الكتاب الذي يقصده عندما

---

[١٧] - توفيق صايغ- سبق ذكره-صفحة٢٨٦

يقول: كتابي). وتضيف انه يحتفظ ببعض الأناشيد والقصائد النثرية التي يكتبها مفردة، إذا كانت مناسبة، كيما يدرجها في الكتاب ويضعها على لسان المنفي[18].

ومن المثير في المقبوس السابق، أن جبران يستخدم مصطلح (القصائد النثرية) منذ ذلك الوقت المبكّر من بدايات القرن العشرين (عام ١٩١٢)، مما يدلل بوضوح على وعيه التام بأن ما يكتبه في (النبي) هو قصائد نثر. وفي الحقيقة فإن استخدامه لهذا المصطلح لم يقتصر على ما كتبه بالإنكليزية في (النبي) فحسب، بل يستخدمه أيضاً ليصف كتاباته العربية أيضاً. ففي رسالة إلى (ماري هاسكل) مؤرخة في خريف ١٩١٣ يقول لها (ان مجموعة من بواكير قصائده النثرية ستصدر بعد ثلاثة أسابيع أو أربعة[19] وقد صدر كتاب (دمعة وابتسامة) عام ١٩١٤، مما يعني أنه كان يقصد النصوص التي تضمنها ذلك الكتاب. وهو ما يؤكد توفر مبدأ (القصدية) التي اعتبرته (سوزان برنار) شرطاً رئيساً من الشروط التي لا بد من توفرها للنص، كي نعتبره (قصيدة نثر). وقد ناقشنا هذه المسألة في

---

(18) توفيق صايغ-سبق ذكره-صفحة٢٨٥

(19) توفيق صايغ-سبق ذكره-صفحة٢٨٤

مقدمتنا لكتاب (دمعة وابتسامة)[٢٠] و فاتنا حينها أن نذكر استخدام جبران للمصطلح بعينه (قصائد نثر) في وصف تلك النصوص. وإذ نشير إلى ذلك هنا فلكي نعزز البراهين التي تؤكد صحة ما ذهبنا إليه في اعتبار جبران رائداً حقيقياً من رواد قصيدة النثر في الأدب العربي المعاصر.

وقد بلغ تأثير (النبي) على شخصية جبران وفكره ووجدانه حداً اختلط معه الأمر على جبران نفسه فلم يعد يدري إذا كان هو قد وضع (النبي) أو أن النبي وضعه. بل راح يجزم أن (النبي) هو الذي ألفّه قبل أن يفكّر بتأليفه،وهو الذي أملى عليه ميوله ومنازعه، كما قال في رسالة له إلى (مي زيادة) بتاريخ ٩ تشرين الثاني١٩١٩: (ماذا عسى أقول لك عن هذا النبي؟ هو ولادتي الثانية ومعموديتي الأولى. هو الفكرة الوحيدة التي تجعلني حرياً بالوقوف أمام وجه الشمس. ولقد وضعني هذا النبي قبل أن أحاول وضعه، وألفّني قبل أن أفكر بتأليفه، وسيّرني صامتاً وراءه سبعة آلاف فرسخ قبل أن يقف ليملي عليّ ميوله ومنازعه.[٢١])

---

[٢٠] نزار بريك هنيدي-مقدمة كتاب دمعة وابتسامة لجبران-مؤسسة علاء الدين-دمشق-٢٠٠٢-صفحة٤٤ وما بعد

[٢١] ماذا بين جبران ومي زيادة-رسائل وذكريات-موسوعة حبران-دار نوبليس-بيروت-١٩٩٧المجلد٢٢-صفحة٥٧

ويقـول لهـا في رسـالة أخـرى عـام ١٩٢٣ أي في عـام صـدور الـنبي: (إنمـا الـنبي يـا مـي أول حـرف مـن كلمـة.. توهمّـت في الماضي ان هذه الكلمة لي وفيّ ومني، لـذلك لم أستطع تهجئـة أول حرف من حروفها، وكان عدم استطاعتي سبب مرضـي، بل وكان سبب ألم وحرقة في روحي. وبعد ذلك شاء اللّه وفتح أذنيّ فسمعت الناس يلفظون هذا الحرف الأول، شـاء اللّه وفتـح شفتيَّ فردّدت لفظ الحرف: ردّدته مبتهجاً فرحاً لأنني عرفت للمرة الأولى أن الناس هم كل شيء وإنني بذاتي المنفصلة لست شيئاً.وأنت أعرف الناس بما كان في ذلك من الحرية والراحة والطمأنينـة، أنـت أعـرف النـاس بشـعور مـن وجـد نفسـه فجـأة خارج حبس ذاتيته المحدودة)[٢٢]

وتبـيّن لنـا أقـوال جبران في رسـائله الـتي عرضـنا مقبوسـات منهـا، أن افتتـان جـبران بفكـرة (النبـوّة)، وتوقـه إلى تمثّـل شخصيّة (الـنبي)، تعـود إلى سـنيّ حياتـه البـاكرة، وهـو الأمـر الذي يمكن لنا أن نتتبع ظهوراته المتعددة في كتاباته السـابقة على صدور (النبي). فمنـذ كتابـه الأول (الموسيقا) الـذي صـدر عام ١٩٠٥، نرى جبران يستخدم صيغة الخطاب النبوي الـذي لا يليق بغير الأنبياء والمرسلين، كما في هـذا المقطـع: (كرّمـوا يـا سكّان الأرض كهنتها وكاهناتها، وعيّدوا لـذكر خدّامها،

---

[٢٢] ماذا بين جبران ومي زيادة-سبق ذكره-صفحة١٢١

وشيّدوا لهم التماثيل. صلّي أيتها الأمم وسلّمي على أورفيوس وداود والموصلي...كبّر أيها الكون الألى بثّوا في سمائك أنفسهم وملؤوا الهواء أرواحاً لطيفة، وعلموا الإنسان ان يرى بسمعه، ويسمع بقلبه. آمين.)[٢٣]

ولاشكّ أن جبران، عندما كتب هذا المقطع، كان يتخيّل نفسه نبياً أو معلماً يقف وسط حشد من أتباعه ومريديه، ليلقي عليهم تعاليمه ووصاياه. وفي كتابه الثاني (عرائس المروج-١٩٠٦) نلتقي شخصية (يوحنا المجنون) التي يسبغ عليها جبران عدداً من خصائص (النبوّة). فالاسم نفسه يذكّرنا ب(يوحنا المعمدان). وهو (يتألمّ مع الإله الإنسان بالجسد، ويتمجّد معه بالروح)[٢٤] ونفسه حرة، وعواطفه مستأمنة بجوار يسوع الناصري[٢٥] لأن نفسه وعواطفه تنتمي إلى المملكة ذاتها التي ينتمي إليها يسوع. وعندما يتكلّم ففي صوته قوّة علْوية[٢٦] لأن ما ينطق به ليس سوى الكلام الذي وضعه الله على شفتيه، مثله مثل جميع الأنبياء والمرسلين. وهو يستخدم التحذير والوعيد على طريقة الأنبياء حين يخاطبون الخطاة

---

[٢٣] جبران-الموسيقا-مؤسسة رسلان علاء الدين-دمشق-٢٠٠٢-صفحة٥٤

[٢٤] جبران-عرائس المروج-مؤسسة علاء الدين-دمشق-٢٠٠٢-صفحة ٧٣

[٢٥] عرائس المروج صفحة٧٨

[٢٦] جبران-عرائس المروج-ص٧٧

والظالمين: (ويل وألف ويل لكم أيها الخاضعون لأصنام مطامعكم، الساترون بالأثواب السوداء اسوداد مكروهاتكم، المحركون بالصلاة شفاهكم وقلوبكم جامدة كالصخور، الراكعون بتذلل أمام المذابح ونفوسكم متمرّدة على الله)[٢٧] ومثل كل الأنبياء، يراه الناس غريباً مستوحداً، يتلفّظ بكلمات غريبة، وينادي أخيلة الظلمة، ويناجي السكون. نفسه منسلخة عن المدارك الحسيّة، وعاقلته منجذبة إلى عالم بعيد، مما يجعل الناس يعتبرونه مجنوناً، أو يقرنونه بالعرّافين والمشعوذين.

كما ورد على لسان أبيه الذي شهد أمام الحاكم بجنونه قائلاً: (طالما سمعته يهذي في وحدته يا سيدي، ويتكلّم عن أشياء غريبة لا حقيقة لها، فكم سهر الليالي مناجياً السكون بألفاظ مجهولة، منادياُ أخيلة الظلمة بأصوات مخيفة تقارن تعازيم العرّافين المشعوذين. سل فتيان الحي يا سيدي، فقد جالسوه وعرفوا انجذاب عاقلته إلى عالم بعيد، فكانوا يخاطبونه فلا يجيب، وان تكلّم جاءت أقواله ملتبسة لا علاقة لها بأحاديثهم. سل أمه فهي أدرى الناس بانسلاخ نفسه عن المدارك الحسيّة، فقد شاهدته مرات ناظراً إلى الأفق بعينين

[٢٧] جبران-عرائس المروج صفحة٧٦

زجاجيتين جامدتين، وسمعته يتكلّم بشغف عن الأشجار والجداول والزهور والنجوم، مثلما يتكلّم الأطفال عن صغائر الأمور. سل رهبان الدير، فقد خاصمهم بالأمس محتقراً تنسّكهم وتعبدهم، كافراً بقداسة معيشتهم. وهو مجنون يا سيدي)[٢٨]

إلا أن شخصية (يوحنا المجنون) لم تكن قادرة على التجسيد الكامل لمفهوم (النبي) الذي يسيطر على تفكير جبران ووجدانه، لاسيّما بعد أن انتهى وحيداً، ناظراً بعينين دامعتين نحو القرى والمزارع المنتشرة على كتفي الوادي، مردداً الكلمات التي تفصح عن انكساره، بالقدر نفسه التي تعلن فيه ثقته بحتمية طلوع الشمس: (أنتم كثار وأنا وحدي، فقولوا عني ما شئتم، وافعلوا بي ما أردتم، فالذئاب تفترس النعجة في ظلمة الليل، ولكن آثار دمائها تبقى على حصباء الوادي حتى يجيء الفجر وتطلع الشمس)[٢٩]

ولذلك كان لا بدّ لجبران أن يبدع شخصية أخرى، أشدّ تماسكاً، وأكثر اقتراباً من الصورة التي رسمها في ذهنه، للنبي الذي يثور على الواقع الفاسد، ويرفض الشرائع المزيفة،

---

[٢٨] جبران-عرائس المروج-ص٨٤

[٢٩] جبران-عرائس المروج-صفحة٨٥

ويؤسس لمفاهيم جديدة، تنفذ إلى قلوب الناس وعقولهم، وتعمل على تحريرهم وبث روح المحبة والسلام فيهم. فكانت شخصية (خليل الكافر) التي شغلت أكثر من نصف كتابه الثالث (الأرواح المتمردة) الذي صدر عام ١٩٠٨.

وقد جعل من خليل راعياً، فقد كان جميع الأنبياء رعاة. وجعله مطروداً من قبل الذين يدّعون تمثيلهم للّه على الأرض. مثلما كان الأنبياء مرفوضين من قبل الرجال المتمسّكين بالشرائع السابقة عليهم والمتحالفين مع السلطة المستبدّة والأغنياء الظالمين.و قد سمّاه أهل قريته (كافراً) (لأنهم يحسبون عدو الرهبان كافراً باللّه وقديسيه)[٣٠] تماماً كما كان الناس يتهمّون كل نبي جديد، بالكفر والهرطقة.وبالرغم من أن (خليل الكافر) كان يعمل على بث تعاليمه بقوة، ويجابه خصومه بجرأة، ويظل رأسه مرفوعاً أمام الزوبعة، فإن نفسه كانت تطفح بالمحبة والتسامح حتى في مواجهة أعدائه، فإذا كان المسيح قد قال: (اغفر لهم يا أبتي فإنهم لا يعلمون) فإن خليلاً يقول لعملاء الشيخ عبّاس: (أنا أشفق عليكم أيها الرجال، لأنكم آلة قوية عمياء في يد

---

[٣٠] جبران-الأرواح المتمردة-مؤسسة علاء الدين-دمشق-٢٠٠٢-صفحة١١٣

مبصر ضعيف يظلمكم ويسحق الضعفاء بسواعدكم)[٣١] بل إن جبران لا يني يؤكد عناصر الشبه بين بطله وبين المسيح كلما سنحت الفرصة لذلك: (فاتبعتهم راحيل ومريم، ونظير بنات أورشليم عندما اتبعن يسوع إلى الجلجلة، سارتا خلف خليل نحو منزل الشيخ عباس)[٣٢] ومثلما يعتبر كل نبي أن رسالته تتجاوز الحدود الضيقة لقومه ووطنه، يقول خليل (الفقراء والمساكين المظلومون هم أهلي وعشيرتي، وهذه البلاد الواسعة هي مسقط رأسي)[٣٣] وكما كان على الأنبياء أن يتحمّلوا كل أصناف العذاب والقهر في سبيل تبليغ دعوتهم، يقول خليل (قد احتملت السجن والجوع والعطش من أجل الحقيقة الجارحة التي رأيتها مكتوبة بالدماء على وجوهكم)[٣٤]

إلا أن التطوّر الحاسم الذي شهدته شخصية (خليل الكافر) بالمقارنة مع شخصية سلفه (يوحنا المجنون)، يتجلى في نقطتين شديدتي الأهمية.الأولى منهما هي إدراك خليل أن رسالته من منشأ إلهي، فهي مشيئة ربّانية، إذ يقول للجموع

---

[٣١] جبران-الأرواح المتمردة –صفحة١١٩

[٣٢] جبران-الأرواح المتمردة-صفحة١١٩

[٣٣] جبران-الأرواح المتمردة-ص١٢١

[٣٤] جبران-الأرواح المتمردة-ص١٢٥

التي تستمع إليه: (لأني بإظهاري لكم حقيقة ما يحسبه الظالمون جرماً هائلاً، قد تمّمتُ مشيئة بارئي وبارئكم.[٣٥])

أما النقطة الثانية فهي النجاح الذي حققه في تغيير الواقع، والانتصار على الظالمين والفاسدين، وتحقيق العدالة، وبث الفرح والطمأنينة والسلام في نفوس البشر. وذلك بفضل قدرة كلماته وحدها، بفعل ما تنضوي عليه من قوة علْوية تشابه العاصفة بعزمها والنسيم برقتها، وبفعل ما في صوته الجهوري من نغمة سحرية تضطرب لها قلوب الرجال الناظرين إليه بإعجاب يشبه استغراب الأعمى إذا ما أبصر فجأة، وتهتزّ لحلاوتها نفوس النساء المحدقات إليه بأعين طافحة بالدموع[٣٦].

ولاشكّ أن هذه القوة العلْوية، وهذه النغمة السحرية، هي من خصائص كلام الأنبياء. وفي الحقيقة، فإن جبران يصرّح في مواضع عديدة من النص، بالطبيعة (النبوية) لشخصية خليل. فهو يقول عنه: (فوقف وقفة نبي يسمع صراخ الأجيال)[٣٧] كما يصفه قائلاً: (فكأنه أصبح منهم في تلك

---

[٣٥] جبران-الأرواح-ص١٣٣

[٣٦] جبران-الأرواح-ص١٣٣

[٣٧] جبران-الأرواح-ص١٣٩

الساعة بمنزلة الروح من الجسد)[٣٨]_فهو يسكب سرائر روحه في قلوب أولئك القرويين، محدثاً إياهم في كل يوم عن غوامض حقوقهم وواجباتهم... جاعلاً بين عواطفه وعواطفهم صلة قوية شبيهة بالنواميس الأزلية التي تقيد الأجرام بعضها ببعض، فكانوا يصغون إليه بفرح يضارع بهجة الحقول الظمآنة بانهطال المطر، ويردّدون كلامه في خلوتهم ملبسين نسمات مقاصده أجساداً من محبتهم[٣٩]

ولا شكّ أن هذه العلاقة بين خليل وأهل قريته تتطابق تماماً مع العلاقة التي سوف نراها بين (المصطفى) وأهل مدينة (أورفليس) في كتاب (النبي). وفي خاتمة قصة (خليل الكافر) التي يجعلها جبران بعد نصف قرن من الحادثة، يتعمّد جبران أن لا يحدثنا عن موت خليل، فهو نبي عاد إلى السماء، حيث يجب أن يكون الأنبياء. ولذلك يختتم النص بمشهدٍ واحدٍ من سكان القرية (إن سأله عن خليل يرفع يده إلى العلاء قائلاً: هناك يسكن خليلنا الصالح, أما تاريخ حياته فقد كتبه آباؤنا بأحرف من شعاع على صفحات قلوبنا، فلن تمحوه الأيام والليالي)[٤٠]

---

[٣٨] جبران-الأرواح-ص١٤٢

[٣٩] جبران-الأرواح-ص١٤٣

[٤٠] جبران-الأرواح المتمردة-صفحة١٤٥

وعندما صدر كتاب (دمعة وابتسامة) عام ١٩١٤، بدا جبران وكأنه قد ضاق ذرعاً بإخفاء صوت النبوّة الذي يصرخ في أعماقه، من خلال تحويل هذا الصوت إلى شخصيّات قصصية مثل يوحنا المجنون وخليل الكافر. ولذلك آثر أن يصرّح بصوته النبوي، قائلاً في خاتمة الكتاب: (جئت لأقول كلمة، وسأقولها)[٤١] ولاشكّ أنه كان بذلك يتمثّل افتتاحية إنجيل يوحنا: (في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند اللّه، وكان الكلمة اللّه). وهكذا يحدّد جبران غاية وجوده، فهو نبي جاء يحمل رسالة يبلغها إلى الناس، وهذه الرسالة هي الكلمة، الكلمة التي كانت في البدء، الكلمة/اللّه. وبما أنه نبي، فهو قادر على السماع من وراء جدران الحاضر، والرؤية من وراء المستقبل، كما قال في نص (نظرة إلى الآتي) في الكتاب نفسه[٤٢] وليس ذلك غريباً، فالشاعر، في مفهومه، نبي حقيقي: (حلقة تصل بين هذا العالم والآتي...ملك بعثته الآلهة ليعلّم الناس الإلهيات. نور ساطع لا تغلبه ظلمة ولا يخفيه مكيال، ملأته زيتاً عشتروت إلهة الحب وأشعله أبولون إله الموسيقى)[٤٣]

[٤١] جبران-دمعة وابتسامة-مؤسسة رسلان علاء الدين- دمشق-٢٠٠٢-صفحة٢٠٤

[٤٢] جبران-دمعة وابتسامة-ص١١٨

[٤٣] جبران-دمعة وابتسامة-ص١٦٠

لذلك عمد جبران إلى صياغة رسالته النبوية (كلمته التي جاء ليقولها) شعراً، في الحركة الثانية من قصيدته الطويلة (المواكب) التي بشّر فيها بعالم تزول منه المتناقضات، وتتوحّد فيه الأضداد، ولا يبقى فيه مجد سوى مجد الحبّ والمحبين.[٤٤] وسنرى أن هذا العالم سيشكّل الأساس التي ستقوم عليه رؤيا (نبي أورفليس) فيما بعد.

ويبدو أن جبران، وهو المؤمن أشد الإيمان بأن (الكلمة) التي يحملها ذات منشأ علْوي إلهي، كان يتوقّع أن تفعل كلمته فعلها، فتنفذ إلى نفوس الناس، الذين سيتحلّقون حوله، منادين به نبيّاً، وعاملين معه على تغيير الواقع الذي يعيشونه، ليصبح مطابقاً للعالم الفاضل الذي نادى به، مثلما كان شأن بطله (خليل الكافر). إلا أن السلبية التي قوبلت بها كتاباته، بل والحملات الشرسة التي شنّها عليه عتاة المحافظين من الكتّاب والنقّاد ورجال الدين، أصابته بحالة شديدة من الإحباط واليأس، تجلّت في كتابه (العواصف) الذي صدر عام ١٩٢٠. فقد وصفه الناس بالكفر والإلحاد،

[٤٤] جبران-المواكب-مؤسسة علاء الدين-دمشق-٢٠٠٢

وطالبوا بنبذ تعاليمه وحرق كتبه، تماماً كما هو الحال مع أي نبي يحمل رسالة جديدة[٤٥].

لذلك كان لا بد أن تنتابه نوبة حادة من السخط على الناس جميعهم، لأنهم برفضهم لكلمته، يكشفون عن عدائهم للآلهة التي وضعت كلمتها على شفتيه، فراح يقرّعهم أفظع تقريع، ويعلن كرهه واحتقاره لهم: (أنا أكرهكم يا بني أمي لأنكم تكرهون المجد والعظمة. أنا احتقركم لأنكم تحتقرون نفوسكم. أنا عدوكم لأنكم أعداء الآلهة ولكنكم لا تعلمون)[٤٦]

وهكذا راحت صورة (النبي) تتغيّر عند جبران، فلم يعد النبي ذلك الرجل الذي يتوجّه إلى الناس ويتقرّب منهم ليبثّهم تعاليمه، بل هو من يعتكف الناس ويبتعد عنهم، كما هي حال شخصية (يوسف الفخري) في نص (العاصفة). فيوسف اعتزل في صومعته (هارباً من الناس وشرائعهم وتعاليمهم وتقاليدهم وأفكارهم وضجتهم وعويلهم)[٤٧] والذي يجد أن كل أعمال الناس باطلة، ماعدا يقظته الروحية. وما هذه اليقظة الروحية سوى تلقيّه للوحي الإلهي، أو للنبوة. يقول

---

[٤٥] جبران-العواصف-مؤسسة علاء الدين-دمشق-٢٠٠٢-صفحة١٠٣

[٤٦] جبران-العواصف- ٢٠٠٢-صفحة٨٧

[٤٧] جبران-العواصف-صفحة١٥٥

يوسف الفخري: نعم باطلة هي أعمال الإنسان وباطلة هي تلك المقاصد والمرامي والمنازع والأماني، وباطل كل شيء على الأرض. وليس بين أباطيل الحياة سوى أمر واحد خليق بحبّ النفس وشوقها وهيامها، ليس هناك غير شيء واحد...هي يقظة في أعماق النفس. هي فكرة تفاجئ وجدان الإنسان على حين غفلة وتفتح بصيرته فيرى الحياة مكتنفة بالأنغام، محاطة بالهالات، منتصبة كبرج من النور بين الأرض واللانهاية,...هي يد خفية قد أزالت الغشاء عن عيني وأنا في وسط الاجتماع بين أهلي وأصحابي ومواطني، فوقفت منذهلاً مدهوشاً قائلاً في نفسي: ما هذه الوجوه وما شأن هؤلاء الناظرين إلي، وكيف عرفتهم، وأين لقيتهم، ولماذا أقيم بينهم، بل لماذا أجالسهم وأحادثهم؟ هل أنا غريب بينهم، أم هم الغرباء في ديار بنتها الحياة لي وأسلمتني مفاتيحها؟)[٤٨]

ولا يخفي جبران صفة (النبوّة) عن يوسف فخري، بل هو يصرّح بها على لسانه عندما يجعله منكراً لجميع الشرائع والأديان القائمة بين الناس، ومع ذلك يتحدّث عن (دينه). فهو صاحب دين جديد إذن، أي هو نبي. فهو يقول: (أما التنسك،

---

[٤٨] جبران-العواصف-صفحة١٦١

وهـو قهـر الجسـد وإماتـة رغائبـه، فمسـألة لا مكـان لـها في ديني)[٤٩]

وتحت تأثير هذه النوبة من اليأس الشديد والسخط العارم، وربما بتأثير من (نيتشه) أيضاً، بلغ التطرف بجبران حداً دفعه إلى جعـل (نبيـه) لا ينكـر البشـر فحسـب، بـل ينكـر (اللّه) نفسه. وعندما ينكر (النبي) ربه، يصبح (ربّ نفسه)، ومن ثم يصبح (إلهاً). ولذلك يتخذ تسمية (الإله المجنون)، في نص من أكثر نصوص جبران تطرفاً وقسوة وقتامة، هو نص (حفار القبور). وفيه يقول النبي الذي صار (إلهاً مجنوناً): (في الصباح أجدّف على الشمس، وعند الظهيرة ألعن البشر، وفي المساء أسخر بالطبيعة، وفي الليل أركع أمام نفسي وأعبدها)[٥٠]

ولكـن جبران سـرعان مـا ينتبـه إلى أنـه بـذلك قـد أفـرغ (النبـوّة) مـن كـل معانيهـا. فمـا مـبرّر وجـود (الـنبي) إذا كـان كافراً بربّه، وحاقداً على البشر، ومنصرفاً عنهم؟ لذلك يقول على لسان (المجنون) (وهو واحد من تجليّات النبي أيضاً) في كتاب (المجنون) الذي صدر بالإنكليزية عام ١٩١٨: (ولكن لمَ أنا ههنا يا رب؟ لمَ أنا ههنا وأنا ثمرة عجراء لم تنل بعد

[٤٩] جبران-العواصف-صفحة١٥٥

[٥٠] جبران-العواصف-صفحة٥٦

شهوتها من النماء، وعاصفة صمّاء هوجاء لا شرقاً تبتغي ولا غرباً، وذرة هائمة تائهة من كوكب محترق ثائر؟ لمَ أنا ههنا؟ لمَ أنا ههنا يا إله النفوس الضائعة، أيها الضائع بين الآلهة؟)[٥١]

ويتذكر جبران أن جميع الأنبياء عانوا من تجاهل مواطنيهم وسلبيتهم أشد من معاناته، ولاقوا من العذاب والهوان على أيديهم، ما لا يقاس بعذابه، بل من الأنبياء من قتله أصحابه، وصلبه مواطنوه، وهذا هو قدر النبي الذي لا يسعى إلى غاية ذاتية، ولا يرغب في مجد شخصي، بل جاء ليجعل أيام الناس أبهى، ولياليهم أسعد. لذلك يقول المجنون: (فأنا لا أكفّر عن ذنب، ولا أسعى إلى تضحية، ولا أرغب في مجد، وليس لي ما أصفح عنه. ولكنني قد عطشت فسألتكم دمي شراباً. وهل من شراب يبرد غلة المجنون سوى دمه؟ أجل! وكنت سجيناً في ظلمة أيامكم ولياليكم فالتمست سبيلاً يؤدي بي إلى أيام أبهى من أيامكم وليال أسعد من لياليكم. وها أنا ذا ماض الآن إلى حيث مضى كثيرون ممن صلبوا قبلي..)[٥٢]

---

[٥١] جبران-المجنون-مؤسسة علاء الدين-دمشق-٢٠٠٢-صفحة ١٠٣

[٥٢] جبران-المجنون-صفحة ٩٢

وهكذا بدأت فقاقيع الغرور تنطفئ عند نبي جبران، الذي صار اسمه الآن (السابق)، كما انطفأت فقاقيع غرور الملك الناسك، في كتاب السابق الذي صدر عام ١٩٢٠[٥٣] ورأى أنه في اعتزاله للعالم لن يكون أفضل حالاً من تلك الصحيفة البيضاء التي آثرت أن تبقى نقية طاهرة إلى الأبد دون أن تدع الظلمة تدنو منها أو تسمح للأقذار بملامستها، فظلت بيضاء كالثلج، نقيّة طاهرة، ولكن.. فارغة![٥٤]

وأدرك أخيراً أنه لا يمكن له أن يحقق ذاته الحرة الطليقة بمعزل عن الناس. إذ إن رسالته النبوية لن تتحقّق إلا إذا أصبح جميع الناس أحراراً طلقاء. فالذات الحرّة الطليقة، التي هي بضعة من الذات الكليّة، لا يمكن أن تعرف غير المحبّة. أما كراهية الناس، والتعالي عليهم، فمن خصائص الذوات المستعبدة الزائلة. كما أدرك أن نسر روحه لا يستطيع أن يحلّق طائراً أمام وجه الشمس، وجه الحقيقة المطلقة، قبل أن تتمكن فراخه من الطيران واللحاق به، مثلما يقول في واحدة من أعذب قصائده النثرية بعنوان (وراء وحدتي):

---

[٥٣] جبران-السابق-مؤسسة علاء الدين-دمشق-٢٠٠٢ الصفحة٥٦

[٥٤] جبران-السابق-صفحة ٨١

أجل، كيف أكون ذاتي الحرّة الطليقة

قبل أن أثأر لنفسي فأذبح جميع ذواتي المستعبدة،

أو قبل أن يصير جميع الناس أحراراً طلقاء؟

إذ كيف تطير أوراقي مترنمة فوق الريح

قبل أن تذوي جذوري في ظلام الأرض؟

بل كيف يحلّق نسر روحي طائراً أمام وجه الشمس

قبل أن تترك فراخي عشّها الذي بنيته لها بعرق وجهي؟[٥٥]

وهكذا عاد جبران إلى نفسه، كرسول محبة، متراجعاً عما صدر عنه في نوبة نزق حادة، من إعلان نفوره من البشر، وكراهيته لهم. بل راح يبرّر ذلك الإعلان بأنه لم يكن يعني ما قاله تماماً، فهو ما فتئ يحب البشر جميعهم، على اختلاف أصنافهم ومشاربهم، وبالرغم من كل ما لاقاه منهم، ولكنه رأى أن يخفي محبته تلك وراء برقع من الكراهية، كوسيلة تمكّنه من تحريضهم على سماع ما يريد قوله لهم، فقال على لسان السابق: (أما أنا فكنت أقول في قلبي: لا بأس في ذلك، فإني سأحبهم أكثر وأكثر. ولكني سوف أسدل على محبتي ستاراً من البغض، وأستر عطفي بشديد كرهي.)[٥٦]

---

[٥٥] جبران-السابق-صفحة٩٠

[٥٦] جبران-السابق-صفحة٩٤

ولكنه الآن قد اكتشف عقم تلك الوسيلة، فقوة المحبة تكمن في إعلانها صريحة عارية، مهما كان موقف الآخرين منها ولذلك فهو يشعر بالندم الشديد على ما بدر منه: (وبعد أن فرغ السابق من كلامه غطى وجهه بيديه وبكى بكاء مرّاً لأنه أدرك في قلبه أن المحبة المحتقرة في عريها لأعظم من المحبة التي تنشد الظفر في تسترها وتنكرها، وخجل إذ ذاك من ذاته. ثم رفع رأسه بغتة، وكأنه أفاق من نوم عميق، وبسط ذراعيه قائلاُ: ها قد ولّى الليل، ونحن أولاد الليل يجب أن نموت عندما يأتي الفجر متوكئاً على التلال، وستبعث من رمادنا محبة أقوى من محبتنا، وستضحك في نور الشمس)[٥٧] وبذلك يضع السابق الأساس الذي ستقوم عليه شريعة نبي أورفليس وهي (المحبة الخالدة).

ولكن جبران، وقبل أن يصدر كتاب (النبي)، سيعمد إلى رسم شخصية جديدة على شكل أنثى هذه المرّة، هي (آمنة العلوية)، ليسبغ عليها صفات النبوّة، وليضع على لسانها أيضاً مجموعة هامة من الأفكار التي سيبلورها (النبي) بعد ذلك بعامين. ففي عام ١٩٢١ كتب نصاً شديد الأهمية بعنوان (إرم ذات العماد)، وهو متضمّن في كتاب (البدائع والطرائف) الذي

---

[٥٧] جبران-السابق-صفحة ٩٦

صدر عام ١٩٢٣. وفيه نلتقي بشخصية غريبة هي (آمنة العلوية) التي تملأ روحها كل مكان، أما جسدها فيسير متجولاً بين التلول والأودية[٥٨]

وقد ولدت في صدر الله، أما جسدها فولد بجوار دمشق، وقد أوحت إليها روح والدها أن تطلق راحلتها وتسير في البادية، حتى دخلت المدينة المقدسة المخفية (إرم ذات العماد). وبعد خمسة أعوام ظهرت في الموصل، وراحت تسير بين الناس وتقف بحلقات العلماء والأئمة متكلمة عن الأمور الربانية، وواصفة ما شاهدته في مدينة الله. وراحت تتنقّل بين المدن وتثير ما سكن في نفوس الناس وتشعل ما خمد في وجدانهم، فيلتفّون حولها ويصغون إلى محاضراتها وأحاديث اختباراتها العجيبة مجذوبين بعوامل قوية سحرية، حتى طلبت نفسها العزلة، فانصرفت عن كل شيء سوى التعمّق في الأسرار الربانية[٥٩].

ولكنها مع ذلك بقيت تستقبل من يرفعه الإخلاص عن حب الاستطلاع إلى الرغبة في الحق، لتجيبه عما في قلبه من أسئلة. وسنلاحظ فيما بعد، أن جبران بنى كتابه (النبي) على إجابات المصطفى عن الأسئلة التي يوجهها إليه أبناء (أورفليس) كما

---

[٥٨] جبران-البدائع والطرائف-مؤسسة علاء الدين-دمشق-٢٠٠٢-صفحة١٤١

[٥٩] جبران-البدائع والطرائف-صفحة١٤٥

كانت آمنة العلوية تجيب عن أسئلة زائريها، شارحة بذلك الأسس التي تقوم عليها رؤيتها للحياة والوجود، وأهم هذه الأسس الإيمان بوحدة الوجود (كل ما في الوجود كائن في باطنك، وكل ما في باطنك موجود في الوجود. وليس هناك من حد فاصل بين أقرب الأشياء وأقصاها، أو بين أعلاها وأخفضها، أو بين أصغرها وأعظمها)[٦٠]. وكذلك وحدة الأديان، لأنها جميعها ذات هدف واحد (قل لا إله إلا الله ولا شيء إلا الله وكن مسيحياً)[٦١]. وتعدد طرق الوصول إلى الحقيقة: (ولكن مهما تباينت الأساليب فمحجة جميع البذور تظل واحدة، وتلك المحجة هي الوقوف أمام وجه الشمس)[٦٢]. والإيمان بالخلود (ليس لحياتك نهاية، فأنت باق ببقاء كل شيء)[٦٣]. والإيمان بالتقمص والعود الأبدي (إذا أغمضت بصرك وفتحت بصيرتك رأيت بداية الوجود ونهايته، تلك النهاية التي تصير بدورها بداية وتلك البداية التي تتحول إلى نهاية)[٦٤] والإيمان بالتشوّق وسيلة إلى معرفة جوهر الحياة: (يستطيع كل إنسان أن يتشوّق ثم يتشوّق ثم يتشوّق حتى ينزع الشوق نقاب الظواهر عن بصره فيشاهد إذ ذاك

---

[٦٠] جبران-البدائع والطرائف-صفحة١٥٠

[٦١] جبران-البدائع ص١٥١

[٦٢] جبران-البدائع-ص١٥١

[٦٣] جبران-البدائع-ص١٥١

[٦٤] جبران-البدائع-صفحة١٤٩

ذاته، ومن يـر ذاتـه يـرَ جـوهـر الحيـاة المجـرد)[٦٥] وسـنرى أن هـذه الأسس جميعها ستكون حاضرة بقوة في ما سيقوله (المصطفى) لأهل (أورفليس) في كتاب النبي، الذي سيصدر بعد عامين من كتابة جبران لنص (إرم ذات العماد).

وهكذا يتّضح لنا أن (نبي) جبران لم يكن له أن يظهر على الصورة المتكاملة التي نراها في كتاب (النبي)، لولا مروره في تلك المراحل جميعها، بدءاً ب (يوحنا المجنون)، وانتهاءً بـ(آمنة العلوية). وكأن تلك المراحل لم تكن سوى تعبير عن الأدوار المتعاقبة التي (تقمّص) فيها النبي تلك الشخصيات المتعددة،و التي كانت ذاته خلالها تتنامى وتقترب من تحقيق (ذاتها العظمى) حسب المبدأ الجبراني في التقمّص. فجبران يشبّه ذات الإنسان بالجدول الصغير، الذي يدور دورات متعددة، تمثل الحيوات المتعاقبة، وفي كل دورة يحمل المزيد من الخبرات، ويكتسب الجديد من المعارف، ويكتشف ما بقي خافياً من الأسرار، وتصفو مياهه وتشفّ ليصبح قادراً على النفاذ إلى جوهر الوجود، ومن ثم يغدو مؤهلاً للعودة إلى الالتحام بالبحر العظيم، الذي يمثل الذات الكونية الأزلية الخالدة، حيث تجد الذات الإنسانية سلامها الشامل وحريتها الحقيقية. ولذلك يقول النبي في الفصل الأول من الكتاب:

---

[٦٥] جبران-البدائع-ص١٥٠

(أنت أيها البحر العظيم الذي فيك وحدك يجد النهر والجدول سلامهما وحريتهما. فاعلم أن هذا الجدول لن يدور إلا دورة واحدة بعد، لن يسمع أحد خريره على هذا المعبر بعد اليوم، وحينئذ آتي إليك، نقطة طليقة إلى أوقيانوس طليق.)

وفي الحقيقة، فإن فكرة (الذات العظمى) هي واحدة من الركيزتين الرئيستين اللتين تقوم عليهما رؤية النبي. فالكتاب بمجمله مبني على مفهوم (الذات العظمى) ومفهوم (وحدة الوجود)، بعد أن جَدَلهما جبران في ضفيرة واحدة، يمكن أن نعيد إليها جميع الأفكار والتعاليم التي يلقنها النبي لأهل مدينة (أورفليس)، قبل أن يهمّ بمغادرتها. فقد ظلّ النبي، الذي يسميّه جبران بالمصطفى، ويصفه بالمختار الحبيب، يترقّب عودة السفينة التي ستعود به إلى موطنه الأصلي بعد أن أمضى اثنتي عشرة سنة في مدينة (أورفليس). وما هذه السفينة غير الموت، الذي لا يعني النهاية أبداً، بل هو الولادة المتجددة التي تنقل ذات الإنسان من طور إلى طور. وبما أن المصطفى كاد يكمل دورات حياته، فإن سفينة الموت هذه ستعيد ذاته إلى موطنها الأصلي، الذي هو الذات الكلية الخالدة التي تتوق كل الموجودات إلى العودة للالتحام فيها، وهذا هو التفسير الذي يجعلنا نفهم قول المصطفى: (بيد أنني لا أستطيع أن أبطئ في سفري. فإن البحر الذي يدعو كل الأشياء إليه يستدعيني،

فيجب علي أن أركب سفينتي وأسير في الحال إلى قلبه. ولو أقمت الليلة ههنا، فإنني، مع أن ساعات الليل ملتهبة، أجمد وأتبلور وأتقيّد بقيود الأرض الثقيلة.). فما يقوله المصطفى في المقبوس السابق يعني أن الموت بالنسبة له هو البدء الحقيقي للحياة، وهو الظفر ببلوغ الذات العليا، أما التشبّث بقيود الأرض فلن يفضي به إلا الى الفناء في الأرض الفانية. وهو ما ينسجم مع ما قاله جبران سابقاً في قصيدته المواكب:

والموت في الأرض لابن الأرض	وللأثيري فهو البدء والظفر
ومن يعانق في أحلامه سَحَراً	يبق، ومن نام كل الليل يندثرُ
ومن يلازم ترباً حال يقظته	يعانق الترب حتى تخمد الزهرُ
فالموت كالبحر، من خفّت	يجتازه، وأخو الأثقال ينحدرُ[٦٦]

كما أن البيت الأخير من مقطع المواكب السابق، هو الذي يتيح لنا فهم القول التالي للمصطفى: (فإن الصوت لا يستطيع أن يحمل اللسان والشفتين اللواتي تسلحن بجناحيه. ولذلك فهو وحده يخترق حجب الفضاء. أجل، والنسر، يا صاح لا يحمل عشه بل يطير وحده محلقاً في عنان السماء.) فسفينة الموت لا تنقل سوى الذات الشفافة التي استطاعت أن تتخلّص من الكثافة المادية للواقع، وليس هذا هو حال ذوات الأفراد

[٦٦] جبران-المواكب-مؤسسة علاء الدين-دمشق-٢٠٠٢-صفحة٨٩

الآخرين الذين عاش النبي بينهم، وأحبهم وأحبوه، ولذلك يقول النبي: (وإنني أودّ لو يتاح لي أن يصحبني جميع الذين هنا. ولكن أنى يكون لي ذلك؟) ولذلك يشعر النبي أنه لن يبرح هذه الأرض حتى تسيل الدماء من جراح روحه, فقد تفرقت أجزاء روحه في الشوارع، ومازال أبناء حنينه يمشون عراة بين التلال. فكيف يفارقهم من غير أن يثقل كاهله ويضغط روحه؟. فالنبي يدرك تماماً أن ذاته الحرة الطليقة لا يمكن لها أن تكتمل بمعزل عن ذوات الأفراد الآخرين، أو قبل أن تلتحق ذوات الناس جميعاً بالذات الشاملة الخالدة. فما دام يؤمن أن البشرية بأكملها ليست سوى شجرة واحدة، فإن أوراقها لا يمكن لها أن تطير مترنمة فوق الريح، إذا ظلت جذورها متشبثة بظلام الأرض. كما أن النسر لا يمكن له أن يحلّق أمام وجه الشمس، قبل أن يتأكد من أن فراخه قد اكتسبت من القوة والمعرفة ما يؤهلها للانطلاق من العش الذي بناه لها من عرق وجهه. وهو ما سبق للنبي، أو لجبران، أن قاله على لسان (السابق) في الكتاب الذي صدر قبل (النبي):

إذ كيف تطير أوراقي مترنمة فوق الريح

قبل أن تذوي جذوري في ظلام الأرض؟

بل كيف يحلّق نسر روحي طائراً أمام وجه الشمس

قبل أن تترك فراخي عشّها الذي بنيته لها بعرق وجهي؟[٦٧]

وهذا هو سر تلك الكآبة الصمّاء التي فاجأت المصطفى لحظة هبوطه عن التلة حيث رأى سفينته تمخر عباب البحر مغمورة بالضباب. ومما زاد من هذه الكآبة إدراكه أن رحيله ذلك دون عودة. مما يعني أنه لن يتاح له أن يلتقي ثانية بأبناء المدينة الذين عاش بينهم في هذه الحياة. فذات الإنسان حين تنتقل بالموت من حياة إلى أخرى، لا يمكن لها العودة مرة ثانية إلى المرحلة التي غادرتها. وبذلك نفهم أن معتقد (التقمّص) عند جبران ينضوي على الإيمان بالمسيرة المتصاعدة للذات البشرية، فكل حياة جديدة ترتقي معها الذات وتسمو وتقترب أكثر من تحقيق ذاتها العظمى التي تعود إلى الذات الشاملة. وليست هناك إمكانية للتقهقر أو الانحدار نحو مرحلة أدنى. ولذلك يقول النبي: (فليس ما أفارقه بالثوب الذي أنزعه عني اليوم ثم أرتديه غداً، بل هو بشرة أمزقها بيدي. كلا، وليس فكراً أخلفه ورائي، بل هو قلب جمّلته مجاعتي وجعله عطشي رقيقاً خفوقاً.). وبالرغم من شوقه العظيم الذي يترقب هبوب الريح لتبحر به سفينته في تلك الرحلة التي لن يرافقه فيها أحد، فإن المحبة التي يكنّها لأهل المدينة جعلته يتمنى أن يتنفس مرة

---

[٦٧] جبران-السابق-صفحة٩٠

واحدة بعد، في جوها الهادئ، وأن يبعث بنظرة عطف إلى الوراء. فالنبوّة لا تكتمل إذا لم يتحوّل قلب النبي إلى شجرة كثيرة الأثمار يقطف منها ويعطي الناس، وإذا لم تفض رغباته كالينبوع فيملأ كؤوسهم. وإذا كان يوم انتقاله إلى العالم الأرفع، هو يوم الحصاد الذي يجني فيه ثمار ما فعل في حيواته السابقة، فإن عليه أن يبذر بذوره في حقول الآخرين ليساعدهم على نمو ذواتهم وتساميها لتبلغ ما بلغه هو من الخلاص. فهذه هي الساعة التي يجدر بالنبي فيها أن يرفع مصباحه على منارته ليهتدي جميع البشر. ومثل كل الأنبياء والمرسلين، فإن النور الذي سيشعّ من مصباحه، لا يصدر عنه، وإنما يصدر عن الذات الإلهية، الذات الكلية الخالدة. فما النبي سوى قيثارة لا تصدر الأنغام إلا إذا لامستها يد القدير، أو مزمار أجوف لا معنى له إذا لم تمر به أنفاس الخالق. فالنبي إذن حامل لرسالة إلهية، وعليه أن يبلّغ هذه الرسالة إلى الآخرين الذين لا يعتبرونه غريباً عنهم، بل يرونه قسيم أرواحهم الحبيب. وإذا كانوا لم يعبّروا عن محبتهم له قبل ساعة الفراق، فلأن محبتهم تقنّعت بالصمت. وهكذا خرجت امرأة عرافة من المقدس، سماها جبران (المطرة)، وكانت أول من آمن به لتناديه بقولها: (يا نبي اللّه) ولتطلب منه أن يعطي الناس من الحق الذي عنده، ويكشف لهم مكنوناتهم، ويخبرهم بكل

ما ظهر له من أسرار الحياة، كي تبقى تعاليمه خالدة على ممر العصور. فيجيب النبي: (يا أبناء أورفليس، بماذا أحدثكم إن لم أظهر لكم ما يختلج في نفوسكم وتتحرك به ضمائركم حتى في هذه الساعة؟).

فإيمانه بوحدة الوجود، يفضي به إلى الاعتقاد بأن الحقيقة المطلقة ليست معزولة في مكان قصيّ، بل هي كامنة في ما تختلج به النفوس، وتتحرك الضمائر. وهو ما سبق أن عبّر عنه جبران على لسان (آمنة العلوية) في نص (ارم ذات العماد) حين قالت: (كل ما في الوجود كائن فيك وبك ولك... كل ما في الوجود كائن في باطنك وكل ما في باطنك موجود في الوجود.

وليس هناك من حد فاصل بين أقرب الأشياء وأقصاها أو بين أعلاها وأخفضها أو بين أصغرها وأعظمها)[٦٨] وكذلك حين قالت: (فإن أغمضت عينيك ونظرت في أعماق أعماقك رأيت العالم بكلياته وجزئياته وخبرت ما فيه من النواميس وعلمت ما يلازمه من الذرائع وفهمت ما يتلمسه من المحجات. أجل إنك إذا أغمضت بصرك وفتحت بصيرتك رأيت بداية

---

[٦٨] جبران- البدائع والطرائف-مؤسسة علاء الدين-دمشق-٢٠٠٢-صفحة

الوجـود ونهايتـه، تلـك النهايـة الـتي تصـير بـدورها بدايـة وتلـك البداية التي تتحول إلى نهاية)[٦٩]

ولـذلك يقـول المـصطفى لأهـل أورفلـيس في فصـل (التعلـيم): (ما من رجل يستطيع أن يعلن لكم شيئاً غير مـا هـو مسـتقر في فجـر معـرفتكم وأنـتم غـافلون عنـه). ولكـن كيـف يمكـن للإنسـان أن يزيـل حجـاب الغفلـة ليـدرك المعرفـة الجوهريـة المستقرة في ذاتـه؟. تجيـب آمنـة العلويـة عـن هـذا السـؤال بقولها: (يستطيع كل إنسان أن يتشوّق ثم يتشوّق ثـم يتشـوّق حتـى ينـزع الشوق نقاب الظواهر عن بصـره فيشـاهد إذ ذاك ذاتـه. ومـن يـرَ ذاته يرَ جوهر الحياة المجرد)[٧٠].

فـلا يمكـن إدراك المعرفـة إذن إلا بالشـوق. والشـوق مـن تجليّات المحبة. فطريق المعرفة إذن هـي المحبـة. وهـو مـا يؤكـده المصـطفى إذ يقـول (كـل هـذا تصـنعه المحبـة بكـم لكـي تدركوا أسرار قلوبكم. فتصبحوا بهذا الإدراك جزءاً من قلب الحيـاة). ولـذلك كـان سـؤال المطـرة الأول للـنبي عـن (المحبـة). فالمحبة هي المفتاح الحقيقي لشريعة (النبي)، وهـي المحور الـذي تـدور حولـه أفكـاره وتعاليمـه جميعهـا. فهـي تضـم النـاس إلى

---

[٦٩] جبران- البدائع والطرائف-مؤسسة علاء الدين-دمشق-٢٠٠٢-صفحة

[٧٠] جبران- البدائع والطرائف-مؤسسة علاء الدين-دمشق-٢٠٠٢-صفحة

قلبها كأغمار الحنطة، وتدرسهم على بيادرها لتظهر حقيقتهم العارية، وتغربلهم لكي تحررهم مما علق بهم من قشور زائلة، وتطحنهم لكي تجعلهم أنقياء كالثلج، وتعجنهم بدموعها حتى يلينوا ويشفّوا ويصبحوا مؤهلين للالتحاق بالذات العلوية الخالدة. وما دام المآل الأخير للذوات البشرية جميعها هو العودة إلى الذات الكلية التي تجمع الوجود كله في وحدة واحدة، فقد كان من الطبيعي أن يخاطب النبي الزوجين قائلاً: (قد ولدتم معاً، وستظلون معاً إلى الأبد. وستكونون معاً عندما تبدّد أيامكم أجنحة الموت البيضاء. أجل وستكونون معاً حتى في سكون تذكارات اللّه.) ومع ذلك يرفض جبران أن تسيطر ذات المحب على ذات محبوبه، فتعمل على إلغائها أو فنائها. لأن كل ذات مقدسة باعتبارها جزءاً من الذات الإلهية. لذلك يضيف النبي: (غنوا وارقصوا معاً، وكونوا فرحين أبداً. ولكن فليكن كل منكم وحده، كما أن أوتار القيثارة يقوم كل واحد منها وحده ولكنها جميعاً تخرج نغماً واحداً). وهو ما يتفق مع ما سيقوله النبي في فصل التعليم حين يؤكد أنه (كما أن لكل منكم مقاماً منفرداً في معرفة اللّه إياه، هكذا يجب عليه أن يكون منفرداً في معرفته للّه وفي إدراكه لأسرار الأرض). ولنلاحظ أيضاً أن جبران يصف أجنحة الموت بالبياض لا السواد، انسجاماً مع فكرته الرئيسة التي لا ترى

في الموت نهاية الكائن، بل ترى فيه معبراً إلى حياة أكثر رفعة وسمواً.

وحينما تستقبل الحياة مولوداً جديداً، فإنه يأتي عن طريق أبويه، ولكن ليس منهم. فالأبوان ليسا أكثر من قوس تستخدمه الحياة لترمي به المواليد كسهام حيّة. وما ذلك إلا لأن ذات المولود هي بضعة من الذات الشاملة الموجودة منذ الأزل، ولذلك فإن ولادة الطفل لا تعني خلقاً له. فنفسه كانت تعيش في أجساد أخرى خلال حيواتها السابقة، وبالولادة تكون قد انتقلت من جسد قديم إلى جسد جديد، أو من مرحلة إلى مرحلة أعلى. وهذا ما يفسّر قول النبي:

إن أولادكم ليسوا أولاداً لكم.

إنهم أبناء وبنات الحياة المشتاقة إلى نفسها، بكم يأتون إلى العالم ولكن ليس منكم....

وإن لكم أن تجاهدوا لكي تصيروا مثلهم

ولكنكم عبثاً تحاولون أن تجعلوهم مثلكم

لأن الحياة لا ترجع إلى الوراء، ولا تلذ لها الإقامة في منزل الأمس.

واستناداً إلى مفهومي (الذات العظمى) و(وحدة الوجود) يمكن لنا أن نفهم مواقف النبي من مجمل القضايا التي يسأله عنها أهل (أورفليس). فالعطاء مثلاً ليس خصيصة من خصائص الرجل الذي يملك ثروة يعطي الآخرين منها. لأن الأفراد جميعهم أجزاء من الذات العظمى، وموجودات الحياة كلها وحدة واحدة. لذلك فإن الحياة هي التي تعطي للحياة، أما الفرد الذي يفخر بأن فعل العطاء قد صدر منه، فما هو في الحقيقة غير شاهد بسيط على عطاء الحياة. وللسبب نفسه لا ينبغي لمن يتناول العطاء والإحسان أن يتظاهر بثقل واجب معرفة الجميل. فالرجل الذي استحق عطية الحياة يستحق أن يقبل أي شيء، (والذي استحق أن يشرب من أوقيانوس الحياة يستحق أن يملأ كأسه من جدولك الصغير). أما المأكل والمشرب، فهما في الحقيقة من تجليات وحدة الوجود. لأن دم الذبيحة يتحد مع دم الآكل في عصارة أعدّت منذ الأزل غذاء لشجرة السماء. والتفاحة التي ينهشها الآكل بأسنانه تزرع بذورها في جسده، لتزهر براعمها في قلبه ويتصاعد عبيرها مع أنفاسه.

وبمفهوم وحدة الوجود يصبح من اليسير علينا استيعاب المفهوم الجديد عن العمل الذي يقول به النبي. فالعمل ليس لعنة لا بد للإنسان أن يقبل بها من أجل تحصيل مستلزمات حياته،

ولا تنبع ضرورته من قدرته على تحقيق حضور الفرد في مجتمعه فحسب، بل هو في الأساس مجاراة لعناصر الحياة، التي تنتمي إلى الوحدة ذاتها التي ينتمي إليها الإنسان. ذلك أن العمل والحركة من الصفات الجوهرية لجميع الموجودات. والذي لا يعمل غريب عن فصول الأرض، وهائم لا يسير في موكب الحياة السائرة بعظمة وجلال في فضاء اللانهاية إلى غير المتناهي. والعمل وسيلة إلى فتح أعماق الحياة، والدنو من أسرارها. وإذا لم ترافق الحركة الحياة كانت في حقيقتها ظلمة حالكة، كما أن الحركة نفسها تكون عمياء إذا لم ترافقها المعرفة، والمعرفة تكون عقيمة إذا لم يرافقها العمل، والعمل يكون باطلاً إن لم يقترن بالمحبة. فالعمل هو الصورة الظاهرة للمحبة الكاملة، ومادامت المحبة هي التي تعمل على إعداد الذات البشرية لتلتحق بأصلها في الذات الشاملة الخالدة، فإن العمل في حقيقته هو التعبير عن التوق الإنساني إلى الاتحاد بهذه الذات الكلية العظمى. وبوحدة الوجود أيضاً تزول الفروق بين الأضداد، وتصبح وجوهاً مختلفة لحقيقة واحدة، فما الفرح سوى الترح ساخراً، لأنهما توأمان لا ينفصلان، والناس متحركون بينهما أبداً، ولا تقف حركتهم إلا عند من كان فارغاً في أعماقه. ولا تناقض بين العقل والهوى، فهما دفّة النفس وشراعها وهي سائرة في بحر العالم.

أما الألم فما هو سوى انكسار القشرة التي تغلف الإدراك، ولذا لا يمكن لأحد أن يعرف معنى الحياة قبل أن تحطم الآلام قشوره. وليس المستقبل على طرف نقيض من الماضي. فالزمان، كالمحبة، لا ينقسم ولا يستقصى. وما الأمس سوى ذكرى اليوم، وليس الغد سوى حلم اليوم.وهذه نقلة على وحدة الوجود يضيفها النبي لتشمل الزمان أيضاً في ما يمكن أن نسميه (وحدة الزمان). ويبلغ التعبير عن وحدة الأضداد حده الأقصى حين يعتبر النبي أن الشر هو بعينه الخير المتألم آلاماً مبرحة من تعطشه ومجاعته. فلا وجود للشر في الأصل عند الإنسان.فالإنسان إذا كان واحداً مع ذاته، فهو صالح. أما إذا لم يكن واحداً مع ذاته فهو ليس بالشرير. وهذه هي النتيجة الحتمية التي يتوقعها المرء من مفهوم جبران عن الذات الجبّارة. فما دامت ذات كل فرد تسعى في مآلها الأخير إلى العودة إلى أصلها في الذات العظمى الخالدة، فلا يمكن أن تنضوي في أعماقها على ما يتنافى مع صفات وقيم هذه الذات. فالخير في الإنسان هو حنينه إلى ذاته الجبّارة، كما يقول النبي، وهذا الحنين في الناس جميعاً، غير أنه يختلف في الشدة والقوة لا غير. فهو يشبه سيلاً جارفاً يجري بقوة منحدراً إلى البحر عند بعض الناس، بينما عند غيرهم يشبه جدولاً صغيراً يريق ماءه في الزوايا والمنعرجات، فيطول به الزمان قبل أن يصل إلى

الشـاطئ. والإنسـان الحقيقـي، هـو الـذي يعـي ذاتـه الإلهيـة، فيمشي محدقاً إلى الشمس بأجفان غير مرتعشة دون أن تقيّده الشـرائع البشـرية. لأن الـذين يعترفـون بتلـك الشـرائع ينسـون أصـلهم الإلهـي، ويولـون الشـمس ظهـورهم وينحنـون مطـأطئي الرؤوس لكي يستقصوا ظلالهم على الأرض. والـذي يعـي ذاتـه الحقـة، يـدرك حريتـه الحقيقيـة، ولـذلك يقـول الـنبي: و(مـاذا يجدر بكم طرحه عنكم لكـي تصيروا أحـراراً سـوى كِسَرٍ صغيرة رثة من ذاتكم البالية) فإذا كانت هذه الكِسَرُ شـريعة جائرة وجب نسخها، وإذا كان طاغية، فيجب أولاً أن يتحطّم عرشـه القـائم في أعمـاقكم، لأنـه مـا كـان لطاغيـة أن يحكمكـم لـولا أنكـم قبلـتم بالطغيـان والعـار قاعـدة لكبريـائكم، لـذلك فـإن طريـق الحريـة يبـدأ مـن استئصـال جرثومـة الخـوف المغروسـة في صميم قلـوبكم. وكـل مـن يقيّـد سـلوكه وتصـرفه بقيـود الفلسـفة والتقليـد إنمـا يحـبس طـائر نفسه ليغرّد في قفص من حديد، لأن أنشـودة الحرية لا يمكـن أن تخـرج مـن بـين العـوارض والقضـبان. ومـا عظمـة الإنسـان إلا بالكـائن غير المحدود الذي فيـه، ففـي داخـل كـل إنسـان يقبـع إنسان عظيم يشـكل حقيقته الجوهرية. وهـذا الإنسـان العظـيم مثـل السـنديانة الجبّـارة المغطـاة ببراعم التفـاح الجميلـة. فقدرتـه تقيـد الإنسـان بـالأرض، وشـذاه يرفعـه إلى الأعـالي، وفي عزمـه

وصـبره علـى العواصـف يكمـن الخلـود. فالبشـرية جميعهـا تشكّل سلسلة واحدة، لذلك يكون الناس ضعفاء مثل أضعف حلقة فيها، ولكنهم في الوقت نفسه، أقوياء مثل أقوى حلقة في سلسلتهم. فالنـاس ليسـوا محصـورين في سـجون أجسـادهم، وليسـوا مقيّـدين بجـدران بيـوتهم وحـدود حقـولهم، لأن الـذات الخفيـة الـتي تمثّل حقيقـتهم هـي روح حـرة طليقـة تغلـف الأرض وتركـب دقـائق الأثـير.إنهـا نسـمة مـن روح اللّه. ولـذلك يعلمنـا الـنبي أن ننـادي اللّه في صـلواتنا بـالقول: (ربنـا وإلهنـا، يـا ذاتنـا المجنحـة). ويعلمنـا أيضـاً أنـه يكفـي لنعـرف ربنـا أن نتأمّـل مـا حولنا فنحده لا عباً مع أولادنا، وماضياً في السحاب، وباسطاً ذراعيه في البرق، ونازلاً إلى الأرض مع الأمطار، ومبتسماً بثغور الأزهار، وناهضاً ومحركاً يديه بالأشجار.

ولمّا كان الناس مـازالوا غـافلين عـن حقيقـة ذاتهـم الإلهيـة، فقد جاء النبي ليظهر لهم بألفاظه ما هو مكنون في أعمـاقهم، فما المعرفـة اللفظيـة سـوى ظـل للمعرفـة غـير اللفظيـة. وإذا بـدت الكلمـات غامضـة علـى الأفهـام، فمـا ذلـك إلا لأن الغمـوض والسـديم همـا بـداءة كـل شـيء ونهايتـه. ولـو اسـتطاع النـاس أن ينظروا مجاري اللهاث فيهم لما احتـاجوا إلى النظـر إلى أي شـيء آخر. ولو استطاعوا أن يسمعوا مناجـاة أحلامهم لمـا بقيـت فـيهم رغبة إلى سماع أي صوت في العـالم. ومـع ذلـك يبشّـر الـنبي أهـل

مدينتـه قبـل رحيلـه عـنهم، أن الحجـاب المسـدول علـى عيـونهم سـترفعه اليـد الـتي حاكتـه، وأن الطـين الـذي يسـدّ آذانهـم ستنتزعه الأصابع التي جبلته، وحينئذ سيبصرون ويسمعون، وسيعرفون المقاصد الخفية في كل شيء، وسيباركون الظلمة كما يباركون النور. لأن الظلمة والنور ما هما غير صفتين لذات واحدة. هي الذات الوحيدة التي تضمّ إليها كل ما في الكون، الذات العظمى، أو الذات الشاملة العليا الخالدة.

وعندما شعر المصطفى أنه أكمل تبليغ رسالته إلى أهل (أورفليس)، شعر أن ذاته التي سَمَت واتسعت، لم تعد تطيق التأخر عن الانضمام إلى جوقة المنشدين في البحر الأعظم. وما هؤلاء المنشدين سوى الأنبياء الذين سبقوه إلى العودة إلى الذات العظمى، الذات الإلهية. فقد وصل جدوله إلى البحر، وأتيح للأم العظيمة أن تضمّ ابنها على صدرها مرة ثانية. ولما كان من عادة البشر أن ينسوا تعاليم أنبيائهم بعد أن يغادروهم، فإن المصطفى يقول لهم: (ولكن إذا تلاشى صوتي في آذانكم وزالت محبتي من قلوبكم فحينئذ آتي إليكم سريعاً... فإن كنت قد خاطبتكم اليوم بالحق الصريح، فإن هذا الحق سيظهر ذاته لكم في ذلك اليوم بصوت أنقى من صوته اليوم، وبكلمات أقرب إلى أفكاركم من كلماته اليوم). وما ذلك إلا لأن البشر حينها سيكونون قد ارتقوا درجة أعلى في سلّم

دورة الحياة. وعندها يصبح جميع الناس مثل (المطرة) التي كانت أول من آمن بالنبي، وأكثر الناس قرباً منه. لذلك نراها بعد رحيل النبي وتفرّق الجمع، قد ظلت وحدها واقفة على شاطئ البحر (شاطئ الذات الكونية الخالدة) تردّد كلمات المصطفى الأخيرة.

لقد توخّيت في هذا العرض، أن أبيّن صلة كتاب (النبي) بمؤلفات جبران السابقة عليه، لتأكيد أن (نزعة النبوّة) كانت متأصّلة في نفسه منذ بداياته الأولى، وأن الرسالة التي يحملها كانت تنمو نموّاً طبيعيّاً من كتاب إلى آخر، ومن مرحلة إلى أخرى. ولذلك يمكن للمرء أن يقول باطمئنان كبير، إن جبران لم يكتب (النبي) بسبب تأثره المباشر بكتاب نيتشه (هكذا تكلّم زارادشت) كما يذهب عدد من المؤلفين. فقد سبق لجبران أن وقع تحت سيطرة نيتشه في عدد من النصوص التي ضمّها كتاب (العواصف)، لكنه سرعان ما خرج عليه، وناقضه، لأن أفكاره لا تنسجم مع الخط العام للفكر الجبراني. وعندما بلغ جبران ذروة نضجه الفكري والفني في كتاب (النبي) نجد أنه لم يأخذ من كتاب (هكذا تكلم زارادشت) سوى شكله الخارجي، الذي يتجلّى في وضع الأفكار والمقولات على لسان نبي يحمل من الصفات والملكات ما يجعله مختلفاً عن الآخرين. وفي غير ذلك فإن كتاب (النبي)

شـديد الاخـتلاف عـن كتـاب نيتشـه، بـل و يبـدو مناقضـاً لـه تماماً. فالعصب الرئيس لكتاب نيتشه هو السخط على النـاس العــاديين، الــذين يجــب أن يموتــوا ليفســحوا المجــال لنشــوء (الإنسـان المتفـوّق) أو(السـوبرمان). فـالقوي وحـده مـن يسـتحق الحيـاة. لـذلك يقـول نيتشـه علـى لسـان زارادشـت: (مـا أكثـر المنذرين بالموت! والعـالم ملـيء بمـن تجـب دعـوتهم إلى الإعـراض عــن الحيــاة. إن الأرض مكـتظــة بالــدخلاء وقــد أفســدوا الحياة)[٧١]

ويقول أيضاً: (ان الإنسـان المتفـوّق قبلـة أنظـاري وعـواطفي، وما أهتم للإنسان ولا للقريب ولا للفقير ولا للمحـزون ولا لخيـار النـاس.... اعتلوا فوق هؤلاء النـاس يا أخوتي)[٧٢]

ويقـول: (..وعليهم أيضـا أن ينقـذوا مـن لا يصـلحون للحيـاة بالقضاء عليهم دون إمهال)[٧٣]

ويضــيف: (إذا مــا رأيــتم متــداعياً إلى الســقوط فــادفعوه بأيديكم وأجهزوا عليه)[٧٤]

---

[٧١] - نيتشـه-هـكـذا تكلـم زارادشـت-ترجمـة فليكـس فـارس-دار القلـم-بيروت-صفحة٦٩

[٧٢] المرجع السابق-صفحة٣١٤

[٧٣] المرجع السابق-صفحة٨

[٧٤] المرجع السابق-صفحة٢٣٩

أما نبي جبران فإن العصب الرئيس لرسالته هو التبشير بالمحبة، والتأكيد على أن جميع البشر يحملون ذواتاً إلهية تشكل بمجموعها ذاتاً خالدة واحدة، ولذلك لا فرق بين قوي وضعيف، ولا بين صالح وطالح، ولا بين بريء ومذنب، (لأنهم يقفون معاً أمام وجه الشمس، كما أن الخيط الأبيض والخيط الأسود ينسجان معاً في نول واحد). بل إن (الإنسان الكامل) أو(الإنسان المتفوق) أو (النبي نفسه)، لا يمكن له أن يبلغ الكمال فعلاً ويحقّق ذاته العظمى إلا إذا أصبح البشر جميعاً، بضعفائهم وأقويائهم، كاملين أيضاً. ومن الواضح أن جبران في ذلك يناقض نيتشه تماماً، بل يبدو وكأنه يردُّ عليه رداً مباشراً.

وفي الوقت الذي يبشّر فيه نبي جبران بالسلام والمحبة، ويجعل الهدف الأسمى للوجود بلوغ مرحلة السلام الأبدي، فإن (زارادشت) نيتشه يبرّر المعارك والحروب قائلاً: (إذا كنت ترى المعارك والحروب شروراً فاعلم يا أخي أنها شروط لا بدّ منها)[٧٥]

وإذا كان النبي يؤكد على المساواة بين البشر، باعتبارهم جميعاً أجزاء من الذات الإلهية، فإن نيتشه يقول على لسان

---

[٧٥] نيتشه- المرجع السابق-صفحة٦٠

زارادشت: (أما المساواة أمام اللّه فما لنا ولها مادام هذا الإله قد مات! ولكن العامة كائنة ونحن نأبى المساواة أمامها، فاعرضوا عن العامة أيها الرجال الراقون، وابتعدوا عن ساحاتها.)[٧٦]

وبالإضافة إلى ذلك كله فهناك تناقض شديد الدلالة أيضاً بين (زارادشت) نيتشه وبين (نبي) جبران، فالأول ينطلق من مقولة (موت اللّه) فيقول: (إن الإله قد مات)[٧٧] بينما تخاطب (المطرة) النبي عند جبران بقولها: (يا نبي اللّه). ويؤكد النبي أيضاً أن رسالته قد وضعها اللّه على شفتيه، فما هو سوى مزمار أجوف، لا معنى له لولا أن مرّت به أنفاس اللّه.

كما وجد بعض الباحثين في فكرة (العود الأبدي) عند نيتشه، تشابهاً مع عقيدة التقمّص عند جبران، مما زاد من قناعتهم بالتشابه بين الكتابين. وفي الحقيقة فإن بين الفكرتين تناقضاً كبيراً أيضاً. فنيتشه يقول بالعودة إلى الحياة السابقة نفسها، دون أن يعتريها أي تغير أو تطور، كما يتضح من العبارة التالية من كتابه (هكذا تكلم زارادشت): (سأعود بعودة هذه الشمس وهذه الأرض ومعي هذا النسر

---

[٧٦] نيتشه-المرجع السابق-صفحة٣١٣

[٧٧] المرجع السابق -صفحة٣٢.

وهـذا الأفعـوان، سـأعود لا لحيـاة جديـدة ولا لحيـاة أفضـل ولا لحيـاة مشـابهة، بـل انـني سـأعود أبـداً إلى هـذه الحيـاة بعينهـا إجمـالاً وتفصـيلاً فـأقول أيضـاً بعـودة جميـع الأشـياء تكـراراً وأبداً)[٧٨]

ويقول: (الكل يذهب والكل يرجع وعجلة الكون تدور إلى الأبـد)[٧٩] ويضـيف: (وا أسـفاه إن الإنسـان سـيعود، سـيعود الإنسان الصغير دوراً فدوراً إلى الأبد)[٨٠]

أمـا عنـد جبران، فكـل دورة حياتيـة تمثـل مرحلـة أرقـى تسـمو بهـا الـذات البشـرية حتـى تبلـغ في نهايـة المطـاف ذاتهـا العظمى، التي هـي جزء من الذات الكلية الخالدة الواحدة، كمـا رأينـا خـلال عرضـنا السـابق للكتـاب. وشـتان بـين الفكرتين، ففكرة نيتشه تؤول في النهاية إلى المذهب الآلـي، كما يقول (آبل ريي Abel Rey)، (فالعالم في رأي ذلك المذهب آلـة عميـاء، مـن شـأنها أن تمـر بـنفس الحـالات مـرات لا متناهية)[٨١]

---

[٧٨] نيتشه-هكذا تكلم زارادشت-ترجمة فليكس فارس، صفحة٢٥٢

[٧٩] المرجع السابق-صفحة٢٤٩

[٨٠] المرجع السابق-صفحة٢٥١

[٨١] الدكتور فؤاد زكريا-نيتشه-دار المعارف بمصر-الطبعة الثالثة١٩٩١ - صفحة١٤١

أما التقمّص عند جبران فهو وسيلة للتطهر والتسامي وإدراك أسرار الحياة وبلوغ الذات العظمى التي فيها وحدها تتحقق الحرية الكاملة والسلام الخالد.

ولا شكّ أن جميع ما سبق، يتيح لنا القول بثقة مطلقة، إن المكان الطبيعي الذي يجب أن نضع فيه كتاب (النبي) هو تماماُ مقابل كتاب (هكذا تكلم زارادشت)، وليس إلى جانبه على الإطلاق. فهو الكتاب الذي يعبّر عن الجوهر الإنساني المتسامي، مقابل كتاب نيتشه الذي لا يعبّر عن شيء قدر تعبيره عن سقوط الحضارة الغربية، واضمحلال كل ما له علاقة بالجوهر الإنساني فيها.

وقد تحدّث بعض الباحثين أيضاً، عن تأثير الشاعر الإنكليزي (وليم بليك) والفيلسوف الاستعلائي الأمريكي (رالف والدو اميرسون) في فكر جبران عامة، وفي كتاب (النبي) بشكل خاص. وفي الحقيقة فإن هناك الكثير من الأفكار التي يلتقي فيها جبران مع (بليك). ذلك أن المحور الرئيس لفكر بليك وفنه يدور حول تحرير النفس البشرية من أصفاد العالم المادي، والإيمان بالحْدس كطريق إلى المعرفة،

واعتبار الرؤيا الشعرية نوعاً من النبوءة، ونفـي وجـود الشـر، أو التأكيد على وحدة الخير والشر[٨٢]

وقـد مجّـد (بليـك) الحـب الـذي يمتـزج بكـل الأشـياء ـيـ ديوانـه (أغـاني البراءة)، أمـا ـيـ (كتـاب ثـل) فيؤكـد أن الموت يعني ولادة جديدة. وـيـ عمله النثري (زواج الفـردوس والجحيم) ينكر حقيقة المادة، كما ينكر شرعية أية سلطة، وـيـ ديوانه (أغـاني الخـبرة) يحـتج علـى الشـرائع والقـوانين الـتي تكبـت قدرات وحرية الإنسان، ويعظّم روح المحبة، وـيـ كتابه (الأربعة زواس) يعيد رسم صورة المسيح كابن للإنسان، أمـا ـيـ أعمالـه الرمزيـة الأخـيرة (ملتـون) و(أورشـليم) فيتحـدث عـن العـالم السرمدي الحقيقـي الـذي لا يكـون العـالم الـواقعي بالنسـبة لـه سوى مجرد ظل، فحياة الخيال هـي حيـاة الخلـود لأنهـا الصـدى الإلهي الذي سنذهب إليه جميعاً بعد موت أجسادنا[٨٣]

أما (اميرسون) فقد كـان يرى أيضـاً أن العـالم المـادي لـيس سوى وهم يحجب الحقيقة المطلقة، وان سعادة الإنسـان تكمـن ـيـ تنميـة حسـه الروحـي حتـى لا يعـود يـرى غـير الله جـوهراً

---

[٨٢] ايفـور إيفـانس-مجمـل تـاريخ الأدب الانجليـزي-ترجمـة زاخـر غبريـال-الهيئـة المصرية العامة للكتاب١٩٩٦ –صفحة٤٠

[٨٣] الرومانتيكيـة ـيـ الأدب الانجليـزي-ترجمـة عبـد الوهـاب مسـيري ومحمـد علـي زيد-سلسلة الألف كتاب-القاهرة-مؤسسة سجل العرب١٩٦٤-صفحة٢١٥

متغلغلاً في كل مادة، فيدرك في لحظة الكشف الكامل وحدة الوجود، واميرسون يقول أيضاً بأن سنة الوجود هي الحركة. وهو يؤمن بالتقمص. كما أنه يستخدم مصطلحاً هو (الروح الأعلى) يكاد يطابق مصطلح جبران (الذات العظمى)، وهو يرمز إلى الروح الأعلى ببحر الحياة، كما يرمز إلى الذات الفردية بالجدول الفردي، كما نرى في كتاب النبي حين يرمز جبران إلى ذات الفرد بالجدول، وإلى الذات العظمى بالبحر الأعظم[٨٤]

وفي الحقيقة، فإنه لا بدّ لنا من التذكير بما سبق وقلناه أثناء عرضنا لكتاب (النبي) من أن المقولات والأفكار التي يتضمّنها بمجملها، إنما تتفرع عن جذرين رئيسين يتمثلان في فكرة (وحدة الوجود) وفكرة (الذات العظمى). ومما لاشكّ فيه أن هاتين الفكرتين ليستا جديدتين، ولا تنتميان إلى مفكّر واحد أو شاعر واحد بحيث يمكن القول ان جبران قد أخذ عنه. ذلك أن المرء بوسعه أن يعيد الفكرتين إلى تيّار فلسفي عام بدأ مع الفلسفة اليونانية القديمة، والأفلاطونية الجديدة، ومعتقدات الهندوسية والبوذية، وتطور على أيدي المتصوفة العرب والرومانسيين الأوربيين والفلاسفة المثاليين،

---

[٨٤] نازك سابا يارد-مقدمة كتاب النبي-مؤسسة بحسون-بيروت١٩٩٢-صفحة٣٠

والحركات التيوزفية التي كانت منتشرة في أمريكا وقت صدور (النبي).

ولذلك يمكن لنا أن نستنتج أن ما نراه من تشابه بين أفكار ومقولات جبران، وبين ما قاله عدد من الشعراء والفلاسفة، لا يعود إلى منطق التأثر والتأثير، قدر ما يعود إلى أنهم جميعهم يسبحون في التيّار نفسه.

ومهما يكن من أمر، فإن كتاب (النبي) لجبران، يجب ألا ينظر إليه ككتاب فكري أو فلسفي مجرد، وإنما ككتاب شعري بالدرجة الأولى. فجبران شاعر أولاً وأخيراً. وفي اعتقادي أن شعرية الكتاب هي التي أتاحت له أن يتبوّأ هذه المنزلة المتفرّدة عند الجمهور الواسع والمتنوّع من القراء في مختلف بقاع الأرض. وهي التي كفلت له الحياة والبقاء حتى يومنا هذا.

د. نزار بريك هنيدي

دمشق ٢٠٠٣/١/٢٢

جبـران خليل جبـران

النبي

THE PROPHET
BY KAHLIL GIBRAN
(١٩٢٣)

المصطفى

مـر علـى المصـطفى، حبيـب الله ومختـاره، والرجـل الـذي كـان فجـراً لزمانـه، إثنـا عشـر حـولاً في مدينـة أورفلـيس وهـو يرتقب عـودة سـفينته ليركبهـا قـافلاً إلى الجزيـرة الـتي كانـت مسقط رأسه.

وفي الحول الثاني عشر، في اليـوم السـابع مـن أيلـول - شـهر الحصـاد - توقّـل المصـطفى الأكمـة الـتي خـارج أسـوار المدينـة والتفت إلى البحر، فأبصر سفينته قادمة مع الضباب.

عندئذ انفتحـت أبـواب قلبـه علـى مصـاريعها، فـانطلق منهـا سـروره انطـلاق الطـائر السـجين مـن سـجنه. وراح يحلـق عاليـاً وبعيداً فوق البحر. فأغمض عينيه وصلى في قرارة نفسه.

إلا أنه، وهـو ينحـدر مـن الأكمـة، أحـسّ كـآبـة تتملكـه، فقال في قلبه:

»كيـف لـي أن أنطلـق مـن ههنـا بسـلام وبغـير كـآبـة؟ لا. لـن أبـرح هـذه المدينـة دونمـا جـرح في روحـي. فمـا كـان أطـول أيـام الألم الـتي أمضـيتها ضـمن أسـوارها، ومـا كـان أطـول ليـالي

الوحـدة ومنـذا يسـتطيع أن يـودع ألمـه ووحدتـه غـير آسـف وغـير مبالٍ؟

لكـم بـذرت نتفـاً مـن روحـي في هـذه الشـوارع! ولكـم مـن مواليـد أشـواقي يمشـون عـراةً بـين هـذه الـتلال! فكيـف لـي أن انسلخ عنهم من غير أن أرهق القلب بالحزن والوجع؟

إنَّ مـا أنضـوه اليـوم عـني لـيس ثوبـاً. إنـه لجلـدٌ حـي أمزقـه بكلتا يدي. ولا هو فكرٌ أخلفه ورائي. ولكنه قلبٌ صار عذباً لشدَّة ما قاسى من الجوع والعطش.

غير أنَّ الرحيلَ لابدَّ منه. فالبحرُ الذي يدعو الكلَّ إليه، يدعوني كذلك. وعليَّ أن أذعن فأبحر من هنا. لأنني وإن تألقـت سـاعاتي في الليـل، سـأتجمد وأتبلـور إذا أنـا أطلـت المكوث. أو أنني أغدو كمن صُبَّ في قالب.

وددتُ لو كان في مستطاعي أن آخذ معي كل من في هذه المدينة وما فيها. ولكن أنى لي ذلك؟.

أيسـتطيع الصـوتُ أن يحمـل اللسـان والشـفتين الـتي منهـا جناحاه؟ إنه لمحتومٌ عليه أن يدرك الأثير وحده.

وكذلك النسر. فهو إذ يمخر عبابَ الفضاءِ وحده لا يحمل وكره على ظهره».

وعندما أدرك أسفل التل التفت المصطفى ثانية نحو البحر فأبصر سفينته تدنو من الميناء، وأبصر على مقدمها بحارتها، وكلهم من أبناء موطنه. فأثار المشهد كوامن نفسه وهتفت لهم روحه:

»يا أبناء أمي المثقلة بالسنين - يا من مطاياهم الأمواج والعواصف.

لكم أبحرتم في أحلامي. وها أنتم الآن تأتون إليَّ في يقظتي التي هي أعمق أحلامي.

إني على أهبة الرحيل، وشراعُ لهفتي في انتظار الريح.

نفس واحد أنفثه بعدُ في هذا الهواء الهادىء - لفتةٌ واحدة أرسلها بعد بعطف إلى الوراء - ومن بعدها ترونني واحداً منكم - ملاحاً بين ملاحين.

وأنت أيها البحر الشاسع - أيتها الأم الغافية، الحالمة - أنت وحدك السلام والحرية للنهر وللجدول.

سيدور هذا الجدول دورة بعد - سيهمس همسة أخيرة في أذن هذه الغابة،

ومن بعدها آتيك قطرةً لا تحدُّ إلى محيطٍ لا يحدّ«.

وإذ كـان يمشـي رأى عـن بعيـد رجـالاً ونسـاء يتركـون حقولهم وكرومهم ويسرعون نحو أبواب المدينة.

ولقـد سمعهـم يـذكرون اسمـه ويتنـادون مـن حقـل إلى حقـل قائلين لبعضهم إن سفينته قد جاءت.

فقال في نفسه:

أيكون يومُ الوداع يوم تلاقٍ، ويومُ التفرقة يوم جمع؟
أأقول إن مسائي كان في الحقِّ فجري؟

وماذا عساني أقدم للذي ترك محراثه في وسط الثلم، للذي أوقف دولاب معصرته؟

أيصبح قلبي شجرة مثقلة بالأثمار كيما أستطيع أن قطف وأناولهم؟

أم تتفجر رغباتي فواراتٍ أترع منها أكوابهم؟

ألعلني قيثار تلمس أوتارهـا أصـابع القـدير؟ أم لعلـني مزمـار تمرُّ في أنفاسه؟

إنْ أنـا غـير إنسـان هـام بالسـكينة. فمـا هـي الكنـوز الـتي حظيـت بهـا في السـكينة والـتي أسـتطيع أن أفـرق منهـا علـى الآخرين بثقة وراحة ضمير؟

إن يكن هذا اليوم يوم حصاد لي، فأين هي الحقول التي بذرت فيها بذاري، وفي أي الفصول التي لا أذكرها بذرت تلك البذور؟

إن تكن هذه الساعة هي بحق الساعة التي عليَّ أن أرفع فيها مصباحي، فالنور الذي فيه لن يكون نوري.

سأرفع مصباحي خالياً من الزيت والنور.

ورب الليل سيملؤه بالزيت، وهو الذي سينيره كذلك».

تلك أفكار عبر عنها بالكلام. ولكن الكثير مما كان يجيش في قلبه بقي متلحفاً بالصمت. لأنه لم يكن في طاقته أن ينطق بسره الأعظم والأعمق.

وعندما دخل المدينة أقبل الشعب كله عليه، وكانوا ينادون باسمه وكأنهم ينادون بصوت واحد.

وانبرى من بين الجمع شيوخ المدينة وخاطبوه قائلين:

رجوناك ألا ترتحل عنا.

لقد كنت ظهيرة في غسقنا. وكان شبابك مبعث أحلامٍ عذاب لنا.

ما أنت بالغريب بيننا، ولا بالضيف، بل أنت ابننا الحبيب.

لا تجعل عيوننا تتعطش إلى رؤية طلعتك منذ الآن.

وقال له الكهان والكاهنات:

لا تدع الأمواج تفصل بيننا الآن، ولا السنين التي أمضيتها معنا تصبح ذكرى لا أكثر.

لقد مشيت في وسطنا روحاً، وكان ظلك نوراً على وجوهنا.

لقد أحببناك كثيراً. ولكن حبنا كان حباً أخرس، وكان محجباً بحجب كثيرة.

أما الآن فذلك الحب يهتف إليك عالياً، ويريد أن ينزع عنه الحجب.

والمعروف عن الحب منذ القدم أنه لا يدرك أقصى ما فيه من عمق إلا ساعة الفراق.

وقام آخرون من الجمع يتوسلون إليه بأن يقلع عن السفر. ولكنه ما كان يجيبهم بكلمة.

بل إنه حنى رأسه. والذين كانوا بالقرب منه أبصروا الدمع يتساقط على صدره.

وأخيراً مشى ومعه الجمع إلى الساحة الكبيرة التي أمام المعبد.

المطـرة

وهناك خرجت من الهيكل امرأة تدعى »المطرة« وكانت عرافة.

فنظر إليها بعينين تفيضان عطفاً وحناناً، لأنها كانت أول من سعى إليه وآمن به، ولم يكن قد مضى على وجوده في مدينتهم غير يومٍ واحد.

فحيته وقالت:

يا نبي الله - أيها الناشد أقصى المعرفة! لقد طالما جابت أبصارك الآفاق البعيدة لعلها تقع على السفينة التي ستقلك إلى أرض آبائك وأجدادك.

فها هي سفينتك قد أقبلت، فلا بد من الرحيل.

عظيمٌ وعميق هو حنينك إلى أرض ذكرياتك، وموطنك الأسمى والأبعد من رغباتك. ونحن لن نجعل من حبنا قيداً لك، ولا من حاجتنا إليك حاجزاً بينك وبين أمانيك.

وكلُّ ما نطمع فيه منك، قبل أن تغادرنا ، هو الحصول على بعض الحقيقة التي أنت حاصل عليها.

فننقلها إلى أبنائنا ، وينقلها أبناؤنا إلى أبنائهم، فلا تندثر من الأرض.

لقد كنت في وحدتك تسهر مع أيامنا : وفي يقظتك كنت تصغي إلى بكائنا وضحكنا في منامنا.

لذلك نسألك الآن أن تظهرنا لأنفسنا وأن تحدثنا عن كل ما انكشف لك من شؤون الفسحة التي تمتد ما بين الولادة والموت.

فكان جوابه:

»يا أهل أورفليس! عماذا عساني أحدثكم إن لم يكن عما يعتلج الآن في نفوسكم؟«.

الحـب

عندها قالت المطرة: حدثنا عن الحب.

رفع رأسه وألقى نظرة على الجمع حواليه، وللحال هبطت على الكل سكينة عميقة. ثم فتح فاه وقال بصوتٍ عظيم:

إذا الحب أومأ إليكم فاتبعوه حتى وإن كانت مسالكه وعرة وكثيرة المزالق.

وإذا الحبُّ لفكم بجناحيه فاطمئنوا إليه، حتى وإن جرحتكم النصال المخبوءة تحت قوادمه.

وإذا الحبُّ خاطبكم فصدقوه، حتى وإن عبث صوته بأحلامكم كما تعبث ريح الشمال بأزهار الحديقة.

ومثلما يكون الحب لكم تاجاً، يكون لكم صليباً فهو إذ ينميكم بقلمكم كذلك.

ومثلما يتسلق أعاليكم فيدغدغ أغصانكم اللدنة المرتعشة في الشمس، هكذا ينحدر إلى أعماقكم فيهز جذوركم في الأرض هزاً عنيفاً.

والحب يجمعكم إليه كما يجمع الحاصد السنابل،

ثم يدرسكم ليعربكم،

ثم يغربلكم لينقيكم من أحساككم،

ثم يطحنكم طحناً،

ثم يعجنكم عجناً،

ومن بعدها يتعهدكم بناره المقدسة كيما يجعل منكم خبزاً مقدساً لوليمة الله السرية المقدسة.

كل ذلك يفعله الحب فيكم، كيما تتكشف لكم أسرار قلوبكم فتصبحوا بعضاً من قلب الحياة.

إلا أنكم، إذا ما ساوركم الخوف من متاعب الحب وآلامه، فرحتم تبتغون سلامه وهناءه لا غير،

فخيرٌ لكم إذ ذاك أن تستروا عريكم، وأن تبرحوا بيدر الحياة،

ثم أن تعودوا إلى العالم الذي انعدمت فيه الفصول، حيث تضحكون، ولكن بعض ضحككم لا كله. وحيث تبكون، ولكن من غير أن تذرفوا كل ما في مآقيكم من دموع.

الحب لا يعطي إلا نفسه، ولا يأخذ إلا من نفسه.

والحب لا يملك، ولا يطيق أن يكون مملوكاً. وحسب الحب أنه حب.

إذا أحب أحدكم فلا يقولن: «إن الله في قلبي». وليقل بالأحرى: «إنني في قلب الله».

ولا يخطرن لكم ببال أن في مستطاعكم توجيه الحب بل إن الحب، إذا وجدكم مستحقين، هو الذي يوجهكم.

ليس للحب من رغبة إلا أن يتمم نفسه.

بيد أنكم إذا أحببتم، وكان لابد لكم من رغبات، فلتكن هذه رغباتكم:

إن تذوبوا في الحب تصبحوا كالجدول الجاري الذي ينشد الليل أناشيده.

وأن تعرفوا ألم العطف المتناهي.

وأن تفهموا الحب فهماً يجرحكم في الصميم، فتدمى جراحكم عن رضى منكم وعن سرور.

وأن تستيقظوا عند الفجر بقلوب مجنحة، شاكرين الله على نهار جديد من الحب،

وأن تستريحوا عند الظهيرة لتفكروا في نشوة الحب،

وأن تعودوا إلى بيوتكم في المساء شاكرين،

ثم أن تأووا إلى أسرتكم وفي قلوبكم صلاة من أجل من تحبون، وعلى شفاهكم نشيد الحمد والثناء.

الـزواج

وتكلمت المطرة ثانية فقالت:

وماذا تقول ﰲ الزواج، يا معلم؟

فأجابها قائلاً:

لقـد وُلـدتم معـاً ذكـراً وأنثـى. ومعـاً سـتبقون إلى الأبـد. وأجنحـة المـوت البـيض، وإن بـدَّدت أيـامكم، لـن تسـتطيع أن تفرقكم.

أجل، وستكونون معاً حتى ﰲ صمت ذاكرة اللّه.

ولكن ليكن ﰲ اتصالكم فُرجة انفصال،

ولـيكن هنالـك مجـالٌ لريـاح السـماءِ أن تـرقص ﰲ مـا بينكم.

أحبُّوا بعضكم بعضاً، ولكن حذار أن تجعلوا من الحب قيداً.

بل ليكن حبكم بحراً مائجاً ضمن شواطئ نفوسكم.

وليملأ الواحد منكم كأس رفيقه، ولكن دون أن يشرب الاثنان من كأس واحدة.

وليعطِ واحدكم الآخر من خبزه، ولكن من غير أن يأْكل الاثنان من عين الرغيف.

غنّوا، وارقصوا، وافرحوا معاً، ولكن ليبقَ كل واحد واحداً.

جودوا بقلوبكم ولكن دون أن تأْتمنوا سواكم عليها.

فما من يد تتسع لقلوبكم إلاَّ يدُ الحياة.

وقفوا معاً، ولكن من غير أن يلتصق واحدكم بالآخر.

فأعمدة الهيكل تتساند ولا تتلاصق.

والسنديانة والسروة لا تنمو إحداهما في ظلّ الأخرى، وإن هما نبتتا في تربة واحدة.

الأبنـاء

وقالت امرأة تضم إلى صدرها طفلاً:

حدِّثنا عن الأولاد.

فأجابها وقال:

إن أولادكم ليسوا بأولادكم.

إنهم أبناء أشواق الحياة وبناتها.

وهم لا يأتون منكم. فما أنتم إلاَّ الواسطة.

وهم وإن كانوا معكم ليسوا معكم.

وأنتم تستطيعون أن تعطوا أولادكم محبتكم، ولكنكم لا تستطيعون أن تلقنوهم أفكاركم.

لأن لهم أفكارهم،

وتستطيعون أن تقيموا المساكن لأبدانهم، لا لأرواحهم،

لأنَّ أرواحهم تسكن في مسكن الغد الذي يمتنع عليكم حتى في أحلامكم.

ولكم أن تكونوا مثلهم، وليس لكم أن تجعلوهم مثلكم.

لأنَّ الحياة لا تمشي القهقرى، ولا هي تتمهل مع الأمس.

أنتم الأقواس، وأولادكم السهام الحية التي تنطلق عنها.

وباري القوس يبصر الهدف على جادَّة الأبد، فيحنيكم بقدرته كيما تنطلق سهامه سريعة وصائبة إلى الهدف البعيد.

وعندما يحنيكم باري القوس طاوعوه عن بهجة وعن رضى،

لأنه مثلما يحبّ السهم المنطلق، يحب كذلك القوس الثابتة في يده.

العطـاء

عندئذٍ قال له رجلٌ غنيّ:

حدِّثنا عن العطاء.

فأجابه وقال:

إنكم تعطون قليلاً عندما تعطون من حطام ما تملكون. أما العطاء الحقيقي فهو أن يعطي الإنسان من نفسه.

وهل ممتلكاتكم غير الأشياء التي تحتفظون بها وتحرصون عليها مخافة أن تحتاجوا إليها في الغد؟

الغد! وما عسى الغد يحمل إلى الكلب الحذر الذي يدفن العظام في الرمال إذ هو يتبع الحجاج إلى المدينة المقدَّسة؟

وهل الخوف من الحاجة إلاَّ الحاجة بعينها؟

أليس العطش الذي لا يرتوي هو خوفكم من العطش في حين تفيض بئركم بالماء؟

هنالك من يعطي القليل من الكثير الذي لديه، ويعطيه طمعاً في الظهور. وهذا تُفسد شهوته الخفيةُ عطاءه.

وهنالك من يملك القليل ولكنه يعطي كل ما يملك.

ذلك شأن المؤمنين بالحياة وجود الحياة، فخزانات هؤلاء لا تفرغ أبداً.

وهنالك الذين يعطون وهم جذلون. فجذلهم ثوابهم. والذين يعطون وهم يتألمون. فألمهم هو المعمودية لهم.

وثمة الذين يعطون غير متألمين، وغير آبهين بما يسببه العطاء من جذل، وغير شاعرين أنَّ العطاء فضيلة.

أولئك يعطون كما تعطي تلك الريحانة في الوادي عطرها النسيم.

بأيدي أولئك وأمثالهم يتكلم الله، ومن أحداقهم يرسل بسماته إلى الأرض.

حسن أن تعطوا إذا سُئلتم. والأحسن أن تعملوا بوحي من أنفسكم فتعطوا من غير أن تُسألوا.

ومن كان سخيَّ الكف فلذَّته في التفتيش عمَّن يأخذ منه لأعظم بكثير من لذَّته في العطاء.

أتظنون بشيءٍ مما تملكون؟

أليس أنكم ستُكرهون في النهاية على التخلي عن كل ما تملكون؟

إذن بادروا الآن إلى العطاء، كيلا يفوتكم موسم العطاء فيكون من نصيب ورثتكم.

كثيراً ما تقولون: إني أودُّ أن أعطي، ولكن المستحقين فقط.

ما هكذا تقول الأشجار في بساتينكم، ولا القطعان في مراعيكم.

بل إنها تعطي لتحيا. إذ إنّ في إمساكها هلاكها.

حقاً إن من استحق أيامه ولياليه من يد الحياة لحقيق بكل شيء منكم.

والذي استحقَّ أن يستقي من محيط الحياة لجدير بأن يملأ كأسه من ساقيتكم الصغيرة..

وأيُّ استحقاق أعظم من الجرأة والثقة، بل من الكرم، التي ينطوي عليها قبول العطاءِ من المعطي؟

وأنتَ من أنتَ أيها المعطي حتى يمزِّق الناس أمامك صدورهم ويهتكوا الحجب التي بها تتحجب كرامتهم كيما تتبيَّن مقدار استحقاقهم، وكيما تمثل لديك أنفتهم عريانةً حيية؟

إنـه حـريٌّ بـك أن تسـتوثق أولاً مـن أنـكَ مسـتحق أن تعطـي وأنك أداة صالحة للعطاء.

إنما الحياة هي التي تعطي ذاتها من ذاتها. أما أنتم الذين تتوهمون أنكم تعطون فلستم في الواقع غير شهود.

وأنتم أيها الذين يتقبلون العطايا ـ وكلُّكم يتقبلها ـ حذار أن يرهقكم عرفان الجميل لئلا يكون عرفانكم نيراً ثقيلاً لكم وللذين تقبلتم عطاياهم.

بـل الأحـرى بكـم أن تجعلـوا مـن عطايـا المعطـي أجنحـة ترفعكم وإيَّاه إلى الأعالي.

لأنكم إذا بالغتم في الشعور بدينكم للمعطي فكأنكم شككتم إذ ذاك في كرمه. وهو الذي أمه الأرض السخيَّة الفؤاد، وأبوه اللّه.

الغــذاء

عندها قال له شيخ، وكان صاحب فندق:

حدِّثنا عن المأكل والمشرب.

فأجابه قائلاً:

ليــت لكــم أن تعيشــوا بعــبير الأرض، وأن تحيــوا بــالنور كنبتات الهواءِ.

أما وأنتم مرغمون على القتل لتُشبعوا ما بكم من جوع، وعلى سلب العجول والحملان لبن أماتها لتطفئوا ما بكم من عطش، فليكن ذلك بمثابة العبادة من قبلكم.

ولتكن موائدكم مذابح تقدمون عليها كل ما هو طاهر وبريءٌ من مواليد السهل والغاب ذبائح لكل ما هو أطهر منها وأكثر براءة من الإنسان.

وعنـدما تـذبحون بهيمـة قولـوا لهـا في قلـوبكم: »إنَّ عـين القـدرة الـتي تـذبحك تـذبحني. وأنـا كـذلك سـأغدوا طعامـاً لغيري«.

»فالقضاءُ الذي سلمك إليَّ هو عينه الذي سيسلمني إلى من هو أقدر مني«.

»وما دمك ودمي غير العصارة التي تغذي شجرة الحياة«.

وإذا نهشَ أحدكم تفاحة فليقل لها في قلبه:

»إن بذوركِ ستحيا في جسدي،

وإن براعم غدكِ ستتفتَّح في قلبي،

وسيكون أريجك في نفسي،

ومعاً سنفرح على مدى الفصول«.

وفي الخريف، عندما تحملون أعنابكم إلى المعصرة، قولوا في قلوبكم:

»أنا كذلك كرمة، وعناقيدي ستُقطف وتُحمل إلى المعصرة،

وكخمرةٍ جديدة سأُحفظُ في الأواني الأبدية«.

وفي الشتاء عندما تسحبون الخمر من آنيتها، لتكن في قلوبكم أغنية لكل كأس.

ولتكن في كل أغنية ذكرى لأيام الخريف، وللكرمةِ وللمعصرة.

الثيـاب

وقال له رجل، وكان حائكاً:

كلِّمنا عن الثياب.

فأجابه قائلاً:

إن ثيابكم تسترُ الكثير من جمالكم، ولكنَّها لا تحجب ما ليس جميلاً فيكم.

وأنتم، وإن كنتم تبتغون من ثيابكم التستُّر عن أعين الغير وما في التستر من حرية، إلا أنكم واجدون فيها لأنفسكم قيداً وعُدَّة كالتي يجهز بها حصان العربة.

ليته كان لكم أن تستقبلوا الشمس بالكثير من جلودكم وبالقليل من أكسيتكم.

لأن نَفَس الحياة إنما يكون في نور الشمس، ويد الحياة في الريح.

يقول البعض منكم: »إن ريح الشمال هي التي نسجت الثياب التي نكتسيها«.

وأقول: أجل. إنها ريح الشمال.

ولكنَّ الخزي كان منوالها، وكان ارتخاء العضلات خيطها.

وعندما فرغت من عملها راحت تقهقه في الغاب.

لا يغربنَّ عن بالكم أنَّ الحشمة درعٌ ضدّ عينٍ في قلب صاحبها رجاسة.

وعندما لا يبقى هنالك من رجاسة فهل الحشمة إذ ذاك غير غُلٍّ في العنق وغير قذارة في الفكر؟

ثم لا تنسوا أنَّ الأرض تبتهج بلمس أقدامكم العارية، وأنَّ الريح تتوق إلى اللعب بشعوركم.

المساكن

عندئذٍ تقدَّم رجلٌ بناءٌ وقال له:

حدِّثنا عن البيوت.

فأجابه وقال:

ابنوا من تخيلاتكم عريشاً في القفر قبل أن تبنوا لكم بيوتاً ضمن أسوار المدينة.

لأنكم مثلما تأوون إلى مساكنكم عند الشفق، كذلك لابدَّ للمجهول والتائه والمستوحد فيكم من مسكن يؤوب إليه.

إن بيتكم هو جسدكم الأكبر.

وهو ينمو بالشمس في النهار، وفي سكينة الليل يهجع.

وهجوعه ليس خلواً من الأحلام.

أليس أنَّ بيوتكم تحلم كذلك؟ وإذ تحلم تنطلق من المدينة إلى الخمائل وأعالي التلال؟

وددت لو أجمع كل مساكنكم في قبضة يدي لأذروها في المروج والغابات نظير ما يذرو الزارع البذار.

وددتُ لو كانت الأودية لكم شوارع، والشعاب الخضر أزقَّة، كيما تتلاقوا في الكروم فتتعطر ثيابكم بأريج الأرض.

إلاَّ أن الوقت لم يحن لذلك بعد.

هو الخوف جعل آباءكم وأجدادكم يحشرونكم جماعات جماعات..

وذلك الخوف سيرافقكم بعد ولو لأجلٍ قصير. ولأجلٍ قصير ستبقى أسوار مدينتكم حاجزاً ما بين مواقدكم وبين حقولكم.

ألا خبروني يا أهل أورفليس ماذا الذي عندكم في هذه البيوت؟ وماذا الذي تخزنونه وتحرسونه وراء أبوابكم الموصدة؟

أعندكم السلام - ذلك الحافز الهاديء الذي يكشف لكم عما فيكم من قدرة؟

أعندكم الذكريات - تلك القباب المشعة التي تصل قمم الفكر بعضها ببعض؟

أم عندكم ذلك الجمال الذي ينتهي بكم من الأشياء المصنوعة من الخشب والحجر إلى الجبل المقدَّس؟

قولوا، أعندكم هذه كلها في بيوتكم؟

أم عندكم الرفاهية وشهوة الرفاهية ـ تلك الشهوة الخبيثة التي تتسلَّل إلى البيت ضيفةً، فلا تلبث أن تصبح مضيفةً، وتنتهي بأن تبيت سيدة؟

أجل. إنَّ حبَّ الرفاهية ينتهي بأن يغدو لكم مروضاً، وبأن يمسخ بكلابه وسوطه رغباتكم العليا ألاعيب ومساخر.

فهو، وإن تكن يده حريرية الملمس، فقلبه من حديد.

وهو يهدهدكم لتناموا. ولكنه يقف بجانب السرير ساخراً بهيبة أجسادكم.

وهو يسخر بحواسكم السليمة فيلفها بالأحساك الناعمة كما تُلفُّ الآنية السريعة العطب.

حقاً إن الإغراق في طلب الرفاهية ليقتل أنبل نزعات النفس، ثم يمشي في جنازتها ضاحكاً شامتاً.

أما أنتم يا أبناءَ الفضاء، الذين راحتهم قلق، فلن تصطادكم شراك، ولن يروِّضكم مروِّض.

وبيتكم لن يكون لكم مرساةً، بل يكون صارياً.

ولن يكون غشاءً لماعاً كالذي يستر الجرح. بل يكون جفناً يحرس العين.

وأنتم لن تطووا أجنحتكم كيما يتاح لكم الدخول من الأبواب، ولن تطأطئوا رؤوسكم مخافة أن تنطح السقف، ولن تحبسوا أنفاسكم مخافة أن تتشقَّق الجدران فتنهار.

وأنتم لن تسكنوا مدافن بناها الأموات للأحياء.

ولن تتسع دوركم، مهما بلغت من الروعة والأناقة، للسر الدفين فيكم ولا لأشواقكم.

لأنَّ ما لا يُحدّ فيكم يقطن قصر السماء الذي بابه ضباب الصباح، ونوافذه أناشيد الليل وسكونه.

العقل والهوى

حينئذ عادت الكاهنة إلى الكلام فقالت:

حدثنا عن العقل والهوى.

فأجابها وقال:

إن نفوسكم لساحات وغى حيث تصطرع عقولكم وآراؤكم ضد أهوائكم وشهواتكم.

ليته كان لي أن أحمل السلام إلى نفوسكم علني أستطيع أن أحول النفور والخصام في عناصركم ألحاناً منسجمة ووحدة لا انفصال فيها.

ولكن، كيف يكون لي ذلك إلا إذا كنتم أنتم أيضاً مصلحين ما بين ما اختلف من عناصركم، وإلا إذا أحببتم جميع تلك العناصر؟

إن عقلكم وهواكم هما الدفة والشراع لنفسكم الماخرة عباب أليم.

وإذا مـا تحطمـت الدفـة أو انمـزق الشـراع فـأنتم إذ ذاك مقضي عليكم بأن تتيهوا مع الموج، أو أن تلزموا مكاناً واحداً في عرض البحر. لأن العقل، إذا تحكم وحده في النفس، كان لها رباطاً، والهوى، ما لم يكن له وازع، التهم ذاته بذاته على حد ما تفعل النار سواء بسواء.

لـذلك فلترفـع النفس عقلكـم إلى علو هـواكم ليصبح في قدرته أن يغني،

ولتتـدارك هـواكم بالعقـل كيمـا يتـاح لـه أن يحيـا بانبعاثـه يوماً بعد يوم، وأن ينهض من رماده كالفينكس.

تمنيـت لـو تنظـرون إلى عقلكـم وهـواكم نظـركم إلى ضيفين عزيزين في بيتكم.

مـن الأكيـد أنكـم لـن تكرمـوا الواحـد فـوق إكـرامكم للآخر، لأنكم إذا اهتممتم بالواحد دون الآخر خسرتم محبة الاثنين معاً وثقتهما.

عندما تقيلون بين التلال، في الظلال الناعمة التي يطرحها الحـور الأبـيض، متمـتعين بسـكينة الحقـول والمـروج البعيـدة وطمأنينتها ـ عندئذٍ لتقل قلوبكم في صمتها: »إن اللّه ليستريح في العقل«.

وعندما تهب العاصفة، وتهزّ الريح العاتية جذور الأشجار في الغاب، ويعلن البرق والرعد عظمة السماء - عندئذٍ لتقل قلوبكم بخشوع ورهبة: »إنَّ اللّه ليتحرك في الهوى«.

وما دمتم نفساً في فضاء اللّه، وورقة في غابته، فحريّ بكم أنتم كذلك أن تستريحوا في العقل وتتحركوا في الهوى.

اللــذة

حينئـذ تقـدم منـه ناسـك كـان يهبط المدينـة مـرةً في السـنة وقال له:

كلمنا عن اللذّة.

فأجابه وقال:

إنما اللذّة نشيد من أناشيد الحرية،

ولكنها ليست الحرية،

وهي أزهار رغباتكم،

وليست الثمار.

وهي غورٌ يتطلّع إلى قمة،

وليست الغور ولا القمة.

وهي الطائر المقفوص وقد بسط جناحيه،

ولكنها ليست الأجنحة التي تلف الفضاء.

أجل. إن اللذة. في الواقع، لنشيد من أناشيد الحرية.

وإنه يسرني أن تنشدوا ذلك النشيد بملء قلوبكم. إلا أنني لست أريدكم أن تضيعوا قلوبكم في الإنشاد.

البعض من شبانكم يفتش عن اللذة كما لو كانت كل شيء. وأنتم لذلك تدينونهم وتؤنبونهم.

أما أنا فلا أدينهم ولا أؤنبهم. بل أريدهم أن يفتشوا.

لأنّهم سيجدون اللذة. ولكنهم لن يجدوها وحدها.

فللذة سبع أخوات. وأصغرهن قدراً لأجمل من اللذة بما لا يقاس.

أما سمعتم عن الرجل الذي كان يحفر الأرض بغية الحصول على بعض الجذور فإذا به يحظى بكنز؟

وفريق من شيوخكم يتذكرون ملذاتهم نادمين كما لو كانت ذنوباً اقترفوها وهم في حالة السكر.

ولكن الندم يُظلم الفكر ولا يؤدبه.

وكان الأحرى بهم أن يذكروا ملذاتهم شاكرين، مثلما يذكرون حصاد الصيف.

أما إذا كان لهم في الندامة بعض التعزية، فليتعزوا بالندامة.

وبيـنـكم الـذين ليسـوا بالفتيـان ليفتشـوا ، ولا بالشـيوخ ليتذكروا ،

بل إنهم يخشون التفتيش والتذكار إلى حدّ أنهم يتحاشون كل لذة مخافة أن يهملوا الروح أو أن يسيئوا إليه بشيء.

أولئك لذتهم في إعراضهم عن اللذة.

فهم كذلك يعثرون على كنوز إذ يبحثون عن الجذور بأيدٍ مرتجفة.

ولكن أخبروني: من ذا الذي يستطيع أن يسيء إلى الروح؟ أيستطيع البلبل أن يسيء إلى سكينة الليل، أو الحباحب إلى النجوم؟

أم يستطيع اللهيب والدخان أن يُثقلا الريح؟

أتحسبون الروح بركةً هادئة تستطيعون أن تحركوا الماء فيها بعصاكم؟

كثيراً ما تحرمون أنفسكم لذة ولكنكم بذلك تختزنون الشهوة في زاوية من زوايا كيانكم.

ومن يدري إذا كان ما تهملونه اليوم لا يعود فيترصدكم في الغد؟

حتى أجسادكم تدرك ميراثها وحقوقها الشرعية فلا تتخدع.

وأجسادكم هي قيثارة نفوسكم،

ولكم أن تستخرجوا منها موسيقى عذبة أو أصواتاً مشوشة.

وكأني بكم تتساءلون الآن في ضميركم: »كيف لنا أن نميز بين ما هو خير في اللذة وبين ما ليس خيراً؟«.

ألا امضوا إلى حقولكم وبساتينكم وهناك تتعلمون أن لذة النحلة إنما هي في جني الشهد من الزهر،
ولكنها في الوقت ذاته لذة الزهرة أن تتخلى عن شهدها للنحلة.

فالزهرة للنحلة هي فوَّارة حياة،

والنحلة للزهرة رسول محبَّة،

وعطاء اللذة وأخذها لكلتيهما حاجة ونشوة.

يا أهل أورفليس، كونوا في ملذاتكم كالنحل والأزهار.

الجمـال

وتكلَّم شاعر فقال:

حدثنا عن الجمال.

فأجابه قائلاً:

أين عساكم تفتشون عن الجمال وكيف تجدونه ما لم يكن الجمال عينه هاديكم وطريقكم؟

وكيف تحدثون عنه إلاَّ إذا كان هو بذاته ناسجاً للحديث؟

إن الذين أحاق بهم أسىً أو نزل بهم ضرر يقولون: »الجمال رفيقٌ ولطيف،

وهو يمشي بيننا كما تمشي الأم الفتية وكأنها تخجل بمجدها مجد الأمومة«.

وأهل الهوى بينكم يقولون: »كلا بل الجمال شيء عات ورهيب،

فهو كالعاصفة يهز الأرض من تحتنا، والسماء من فوقنا«.

أمَّا المتعبون والذين بهم ملل فيقولون: »الجمال همس لطيف نسمعه بأرواحنا.

وصوته يمتثل لسكوتنا امتثال النور الضئيل الذي يرتعش خوفاً من الظل«.

أما القلقون فيقولون: »لقد سمعنا صراخ الجمال في الجبال،

ومع صراخه سمعنا وقع حوافر، وخفق أجنحة، وزئير أسود«.

وفي الليل يقول حراس المدينة: »إنّ الجمال سينهض مع الفجر من المشرق«.

وعند الظهيرة يقول العمَّال وأبناء السبيل: »لقد رأينا الجمال يُطل على الأرض من نوافذ المغرب«.

وفي الشتاء يقول الذين سدَّت الثلوجُ عليهم المسالك: »سيأتي الجمال مع الربيع وهو يقفز على التلال«.

وفي هجرة الصيف سيقول الحاصدون: »إنَّا رأينا الجمال يرقص مع أوراق الخريف، وأبصرنا ركاماً من الثلج في شعره«.

كلّ ذلك قلتموه في الجمال،

ولكنكم، في الواقع، ما كنتم تتكلمون عنه بل عن حاجات في نفوسكم لازالت غير مقضية.

لأن الجمال ليس حاجةً بل هو نشوة.
إنه ليس فماً ظمئاً، ولا يداً فارغة مبسوطة،

ولكنه قلب ملتهب ونفس مسحورة.

ولا الجمال الصورة التي تودون لو تبصرونها، أو الأنشودة التي تتمنون لو تسمعونها،

بل هو بالأحرى صورة تبصرونها وأعينكم مطبقة، ونشيد تسمعونه وآذانكم مغلقة.

ولا الجمال عصارة تمشي في لحاءٍ ممزق، أو جناح شدَّ إلى مخلب،

إنه جنّة مزهرة أبداً، وسرب من الملائكة في طيران مستمر.

يا أهل أورفليس! إنما الجمال الحياة وقد نزعت الحجاب عن وجهها القدوس،

ولكن أنتم الحياة والحجاب.

وإنما الجمال الأبدية محدقة إلى وجهها في المرآة، ولكن أنتم الأبدية والمرآة.

الحزن والفرح

وقالت امرأة:

كلِّمنا عن الحزن والفرح.

فأجاب وقال:

إنما فرحكم حزنكم وقد بات سافراً.

فالبئر التي منها يرشح فرحكم هي عين البئر التي طالما فاضت بدموعكم.

وكيف يكون الأمر إلا كذلك؟

فكلما أمعن الحزن حفراً في كيانكم اتسع المجال فيكم للفرح.

أليست الكأس التي تترعونها خمراً عين الكأس التي احترقت في موقد الخزَّاف؟

ثم أليس الناي الذي يشجوكم بألحانه عين الخشبة التي حفرت السكين أحشاءها؟

عندما تأخذكم سورة الفرح تطلَّعوا إلى أعماق قلوبكم تجدوا أنَّ الذي سبَّب لكم الفرح الآن هو عين الذي جاءكم منه الحزن في ما مضى.

وعندما تطغى عليكم موجة من الحزن، فتشوا قلوبكم كذلك. وستدركون أنكم تبكون في الواقع ذلك الذي كان مصدر بهجةٍ لكم سابقاً.

يقول بعضكم: »إن الفرح أعظم من الحزن«. ويقول البعض الآخر: »كلا، بل الحزن هو الأعظم«.

أما أنا فأقول لكم إن الاثنين لا ينفصلان.

فهما يأتيان معاً. وعندما يجلس أحدهما إلى مائدتكم، فلا تنسوا أن الآخر ينام في سريركم.

حقاً إنكم لأشبه ما تكونون بين حزنكم وفرحكم بكفتي ميزان.

فلا تستوي الكفتان وتستقران في حال واحدة إلا إذا كانتا فارغتين.

وعندما يرفعكم حارس الخزينة ليزن ما فيكم من ذهب وفضة، إذ ذاك لابد من أن تشيل أو تهبط كفة فرحكم أو كفة حزنكم.

الألـم

وتكلّمت امرأة فقالت:

حدثنا عن الألم.

فأجابها وقال:

إنما الألم انشقاق القشرة التي تغلّف إدراككم.

وكما يتحتم على النواة أن تنفلق كيما يبدو قلبها للشمس، كذلك يتحتم عليكم أن تعرفوا الألم.

فلو كان لقلوبكم أن لا تبرحها الدهشة من عجائب الحياة التي تكتنفكم في كل يوم لدهشتم للألم دهشتكم للفرح،

ولتقبلتم فصول قلوبكم بمثل الرضى الذي ما برحتم تتقبلون به فصول الحقول،

ولأقمتم في شتاء أحزانكم تترقبون بطمأنينة قدوم الربيع.

إنكم تختارون الكثير من آلامكم.

وآلامكم تلك هي الدواء المر الذي يصفه الطبيب فيكم لأنفسكم المريضة.

لذلك عليكم أن تثقوا بطبيبكم، وأن تجرعوا الدواء الذي عدّه لكم ساكتين وهادئين.

لأن يده، وإن بدت ثقيلة وقاسية، فإنما تطاوع في ما تعمل يد القدرة التي لا تدرك ولا تُبصر.

ولأن الكأس التي يقدمها لكم، وإن هي حرقت شفاهكم، فالطين الذي صُنعت منه هو الطين الذي بلله الخزاف الأعظم بدموعه القدسية.

الكلام

ثم سأله عالم:

حدثنا عن الكلام.

فأجابه وقال:

إنكم تتكلمون عندما ينقطع حبل السلام بينكم وبين أفكاركم.

وعندما يتعذر عليكم أن تسكنوا في وحدة قلوبكم، تسكنون في شفاهكم، فيكون لكم من الأصوات التي ترسلونها لهو وتسلية.

وأنتم في الكثير من أحاديثكم إنما تقضون، أو تكادون، على تفكيركم.

لأنّ الفكر أشبه ما يكون بطائر في الفضاء. فإذا سجنتموه في قفص من الكلام بقي في مستطاعه أن يبسط جناحيه، ولكنه تعذر عليه أن يطير.

هنالـك الـذين يسـعون مـنكم في طلـب المـتكملين لأنهـم يخشون أن يبقوا مع أنفسهم وحيدين.

لأنّ سـكينة الوحـدة تكشـف لأبصـارهم ذواتهـم العاريـة ولذلك يلوذون بالهرب.

وهنالك الذين يتكلمون، ولكنهم عن غير قصدٍ أو وعيٍ منهم ينطقون بحقائق هم أنفسهم لا يفهمونها.

وهنالك الذين انطوت الحقيقة في داخلهم، وهم يعرفونها ولكنهم لا يتكلمون بها.

إن في صدور هؤلاء يقيم الروح في سكينة تختلج بنبض الحياة.

عندما تلاقون صديقاً في الطريق، أو في السوق، فليحرك الروح شفاهكم وليوجه لسانكم.

دعوا الصوت الذي في صوتكم يكلم الأذن التي في أذنه،

لأن نفسه ستحتفظ بحقيقة قلبكم. كما تحتفظ الذاكرة طعم الخمر،

من بعد أن تنسى لونها، ومن بعد أن يفنى الوعاء الذي ضمها.

التعليم

عندها سأله معلم:

حدثنا عن التعليم.

فأجابه وقال:

ليس في مستطاع أي إنسان أن يكشف لكم غير ما هجع نصف هجعة في فجر معرفتكم.

والمعلم الذي يتخطر بين أتباعه في ظل الهيكل لا يعطي من حكمته بل من إيمانه ومحبته.

وهو إن يكن بحق حكيماً فلن يدعوكم لتدخلوا بيت حكمته، بل يقودكم إلى عتبة الفكر الذي هو فكركم.

والفلكي إما حدثكم عن فهمه للفضاء، فلن يستطيع أن يعطيكم فهمه.

والموسيقي قد يتغنى أمامكم بما في الفضاء من نبضٍ موقع، ولكنه لا يقدر أن يعطيكم الأذن التي تلتقط ذلك النبض ولا الصوت الذي يردده.

والمتعمق في علوم الأعداد يمكنه أن يخبركم عن دنيا الموازين والمقاييس، ولكنه لا يستطيع أن يقودكم إليها.

لأن إلهام الواحد منكم لا يعير جناحيه للآخرين.

وكما أن كلاً منكم يقف وحده في معرفة الله للكائنات، كذلك يجب أن يستقل بمعرفته لله وبفهمه للعالم الأرضي.

معرفة النفس

فقال رجل:

حدثنا عن معرفة النفس:

فأجابه وقال:

إن قلوبكم لتعرف في سكينتها أسرار الأيام والليالي.

ولكن آذانكم تتعطش إلى سماع ما تعرفه قلوبكم.

فأنتم تصرون على أن تعرفوا بالكلام ذاك الذي عرفتموه دائماً بالفكر.

إنكم تريدون أن تلمسوا بأصابعكم أجساد أحلامكم العارية.

وجدير بكم أن تصروا.

فالينابيع الخفية في نفوسكم لابد لها من أن تتفجر وتنساب منحدرة نحو البحر،

والكنوز التي في أغواركم السحيقة تأبى إلاَّ أن تنكشف لأبصاركم.

ولكن حذار أن تزنوا كنوزكم الخفية في موازين.

وحذار أن تحاولوا سبر أغوار معرفتكم بعصاً أو بحبل. لأن الذات بحر لا يحد ولا يقاس.

لا تقولوا: »لقد وجدتُ الحقيقة«. بل قولوا بالأحرى: »لقد وجدت حقيقة«.

ولا تقولوا: »لقد اهتديت إلى طريق النفس«. وقولوا بالأحرى: »لقد رأيت النفس تمشي في طريقي«.

لأن النفس تمشي في جميع الطرق.

والنفس لا تمشي على خط من الخطوط، ولا هي تنمو نمو القصبة.

ولكنها تتفتح كما تتفتح زهرة النيلوفر ذات التويجات التي لا تُعد.

الصداقــة

وقال له فتىً:

حدثنا عن الصداقة.

فأجابه قائلاً:

إن صديقك هو حاجتك وقد انقضت.

هو الحقل الذي تزرعه بالمحبة وتحصده بالشكران.

هو مائدتك والموقد الذي تصطلي بناره.

لأنك تحمل إليه جوعك، وتسعى إليه لتحظى بالسلام.

عندما يفصح صديقك عما في فكره، فأنت لا تخشى أن تقول له »كلا«، ولا أنت تمسك عنه كلمة »نعم«.

وعندما يكون صامتاً، فقلبك لا ينفك يصغي إلى قلبه.

لأنه حيثما كانت الصداقة، فجميع الأفكار والرغبات والآمال تولد وتُقتسم بفرح بين الصديقين دونما سابق إعلان.

وإذا افترقت عن صديقك فلا تحزن.

لأنّ ما أحببته فيه فوق كل شيء آخر ينجلي لك أكثر فأكثر في بعده عنك. مثلما ينجلي الجبل من السهل لمن شاء أن يتسلقه.

ليكن خيرُ ما عندك لصديقك.

وإذا كان لا بد له من أن يعرفك وأنت في حالة الجزر، فليعرفك كذلك وأنت في حالة المد.

وهل الصديق للتسلية فتسعى إليه في ساعة الضجر لقتل الوقت؟

بل اذهب إليه دائماً لتحيا وإياه ساعات مليئة بالحياة.

لأنه ما كان صديقاً ليملأ فراغك، بل ليقضي حاجتك.

وإذا اجتمعت بصديقك فلتكن حلاوة الصداقة مبعثاً للضحك واقتسام المسرات.

لأن القلب ينتعش ويجد صباحه في ندى الزهيد والصغير من الأشياء.

الزمـان

ثم تكلّم فلكيّ فقال:

ما قولك في الزمان؟

فأجابه:

إنه ليروقكم أن تقيسوا الزمان الذي يتعدّى كل قياس، مثلما يروقكم أن تكيفوا سلوككم وتحددوا اتجاه أرواحكم بمقتضى الساعات والفصول.

ويروقكم كذلك أن تجعلوا من الزمان نهراً تجلسوون على ضفافه وترقبون اندفاعه.

إلا أنّ ما لا يتقيد فيكم بزمان ليعرف أن الحياة لا يحصرها زمان،

ويعرف أن أمس ليس سوى ذكرى اليوم، وأنَّ الغد ليس سوى حلم اليوم،

وأن ما يغني ويتأمل فيكم لا زال ضمن تلك اللحظة.

من منكم لا يشعر أن مقدرته على الحبّ لا تُحد؟

ومن لا يشعر أنَّ ذلك الحب لا يحد ينحصر في محور كيانه، ويتنقل به من فكرة في الحب إلى أخرى، ومن صنيع يفرضه الحب إلى صنيع مماثل؟

أليس الزمان كالحب، لا يتقسم ولا يقاس بالخطوات؟

إلا أنكم ما دمتم مجبرين على تقسيم الزمان في أفكاركم إلى فصول، فليلف كل فصل من فصولكم باقي الفصول،

وليلف حاضركم ماضيكم بالذكرى، والمستقبل بالشوق والحنين.

الـديـن

ثم تكلم كاهن مُسن فقال:

حدثنا عن الدين.

فأجابه قائلاً:

ألعلني تكلمت اليوم إلاَّ عن الدين؟

أليس الدين كلّ ما نعمله وما نفكر به،

وذلك الذي ليس بالعمل ولا بالفكر، بل هو اندهاش واندهال يتفجران أبداً من القلب حتى ساعة تقطع اليد الحجر أو تهتم بالنول؟

منذا يستطيع الفصل ما بين إيمانه وأعماله، أو ما بين معتقده ومهنته؟

أو منذا يستطيع أن يبسط ساعاته أمامه ثم أن يقول: »هذه الساعة للّه، وهذه لي. أو هذه لنفسي، وتلك لجسدي«؟.

إنَّ جميع ساعاتكم لأجنحة تشق الفضاء من الذات وإلى الذات.

والذي يلبس الفضيلة نظير ما يلبس خير رداءٍ عنده لإنسان عريان، ولن تخترق الريح ولا الشمس جلده.

والذي يتقيد في سلوكه بما يفرضه عليه أدب السلوك إنما يسجن طائره الغريد في قفص.

والأغرودة الحرَّة لا تنطلق من خلال أسلاك الأقفاص وقضبانها.

والذي عنده العبادة نافذة تفتح وتغلق عند الحاجة لم يدخل بعد بيت نفسه حيث النوافذ مشرعة من الفجر حتى الفجر.

إنَّ لكم في حياتكم اليومية هيكلاً وديناً.

وكلَّما دخلتم ذلك الهيكل خذوا معكم جميع ما تملكون:

خذوا المحراث والكور والمطرقة والقيثارة،

تلك الأشياء التي صنعتموها سواء لقضاء حاجة أم لمجرد الاغتباط بصنعها.

لأنكم في تخيلاتكم لا تستطيعون أن ترتفعوا فوق انتصاراتكم، ولا أن تنحدروا إلى ما دون إخفاقكم.

وخذوا معكم إلى الهيكل كل الناس:

لأنكم، في عبادتكم، لن تحلقوا أبعد من آمالهم، ولن تُذلوا نفوسكم إلى درجة أحط من يأسهم.

إن شئتم أن تعرفوا الله فلا تحصروا اهتمامكم في حل الأحاجي.

بل الأحرى أن تنعموا النظر في ما هو حواليكم، وإذ ذاك تبصرون الله يلعب مع أولادكم.

انظروا إلى الفضاء تبصروه يمشي في الغمامة باسطاً ذراعيه في البرق، وهابطاً إلى الأرض مع المطر.

وانظروا إلى الأرض تروه يبسم في الأزاهر، ثم تروه يرتفع ويلوح بيديه من أعالي الشجر.

الصلاة

عندئذٍ قالت كاهنة:

كلَّمنا عن الصلاة.

فأجابها وقال:

أنتم تصلون في الشدة وعند الحاجة. ويا ليتكم كنتم تصلون وأنتم في قمة الفرح وفي منتهى الرخاء.

وهل الصلاة إلا أن تتمدد ذواتكم في الأثير الحي؟

وإذا كان يرفه عنكم أن تريقوا ظلامكم في الفضاء فإنه ليبهجكم كذلك أن تريقوا فجر قلوبكم.

وإذا كنتم لا تتمالكون عن البكاء كلما دعتكم نفوسكم إلى الصلاة، فلتحثّكم تلك النفوس، وإن بكت، على التعمق والتمادي في الصلاة حتى تنتهوا منها ضاحكين.

إنكم في الصلاة ترتفعون لتلتقوا في الفضاء بجميع الذين يصلّون في تلك الساعة، والذين قد لا تلتقون بهم إلا في الصلاة.

فلتكن زيارتكم لذلك الهيكل غير المنظور لا لسببٍ إلاَّ لتجعلوا منها داعياً للنشوة الروحية وللتعارف الطيب.

لأنكم إذا دخلتم الهيكل بقصد الاستعطاء لا أكثر فلن تحصلوا على شيء.

أو دخلتموه لتُذلوا نفوسكم فلن تخرجوا منه مرفوعي الرؤوس.

حتى وإن دخلتموه لتستجدوا للغير فلن يسمع استجداءكم أحد.

حسبكم من الهيكل غير المنظور أن تدخلوه.

ليس لي أن أعلمكم كيف تصلون بالكلام.

فالله لا يصغي إلى ما تقولون إلاَّ إذا قاله هو نفسه بشفاهكم.

وليس في مستطاعي أن أعلمكم صلوات البحر والغاب والجبل.

أما أبناء البحار والغابات والجبال فإنهم لواجدون تلك الصلوات في قلوبهم.

ولو أنكم أصغيتم في سكينة الليل لسمعتم البحار والغابات والجبال تصلي في صمتها هكذا:

»يا إلهنا الذي هو ذاتنا المجنحة. إننا بإرادتك التي فينا نريد. وبرغبتك التي فينا نرغب.

»وباندفاعك الذي فينا نندفع لنحوّل ليالينا ، التي هي لك، نهاراتٍ هي لك أيضاً.

إننا لا نملك أن نسألك شيئاً. لأنك تعرف حاجاتنا قبل أن تتولد فينا.

»أنت حاجتنا. إذا ما زدتنا من ذاتك فقد أعطيتنا كل شيء«.

الخير والشر

وقال له أحد شيوخ المدينة:

حدثنا عن الخير والشرّ.

فأجابه:

أستطيع أن أحدثكم عن الخير فيكم أما عن الشر فلا. إذ ما هو الشرّ إن لم يكن الخير بعينه وقد برَّح به عطشه وجوعه؟

حقاً إن الخير إذا جاع فتّش عما يأكله في المغاور المظلمة، وإذا عطش شرب المياه الآسنة.

أنتم أخيار ما دمتم غير منقسمين على ذواتكم.

بل إنكم، حتى وإن انقسمتم على ذواتكم، غير أشرار.

لأن البيت المنقسم على ذاته لا يصبح حتماً مغارة لصوص بل يبقى بيتاً منقسماً على ذاته.

والمركب الذي بغير دفةٍ قد يتيه مع الموج بين الجزر المحفوفة بالمخاطر ولكن من غير أن يغرق إلى القاع.

وأنتم أخيار عندما تعطون من ذواتكم.

ولكنكم لستم بأشرار إذا ما طلبتم الربح لأنفسكم.

لأنكم عندما تطلبون الربح فشأنكم في ذلك شأن الجذور تلتصق بالأرض لتمتص من ثديها الغذاء.

من الأكيد أن الثمرة لا تستطيع أن تقول للجذر: »كن مثلي، ناضجاً ومليئاً بالحلاوة، وأعطِ أبداً من بحبوحتك بغير حساب«.

لأن العطاء حاجة من حاجات الثمرة، مثلما الأخذ حاجة من حاجات الجذر.

ثم إنكم أخيار عندما تزنون بروية كل ما تنطقون به، ولكنكم لستم أشراراً عندما تتعثر ألسنتكم في المنام على غير روية ولدونما غاية.

حتى إنَّ النطق المتعثر قد يكون مقوياً للسان الضعيف.

وأنتم أخيار عندما تمشون إلى الهدف بخطى ثابتة وجريئة،

ولكنكم لستم أشراراً عندما تعرجون إلى الهدف عرجاً.

حتى العُرج لا يمشون إلى الوراء.

أمَّا أنتم أيها الأقوياء وسريعو الخطى فحذار أن تعرجوا أمام العُرج ظناً منكم أنكم بذلك تظهرون عطفكم عليهم.

إنكم أخيار في مظاهر لا تُحصى، ولستم أشراراً حتى وإن لم تكونوا أخياراً.

بل إنكم إذ ذاك تبطئون في السير وتتبالدون.

أسفاه أن لا يقدر الظبي أن يعلم السلحفاة السرعة!.

إن خيركم لفي حنينكم إلى ذاتكم الجبارة، وذلك الحنين ليس بغريب عن أي منكم.

إلا أن ذلك الحنين سيل جارف في بعضكم يحمل إلى البحر أسرار التلال وأناشيد الغاب،

وفي الآخر ليس أكثر من جدول ضحلٍ يتلوى وينعطف ويتباطأ في سيره قبل أن يدرك الشاطىء.

ولكن حذار أن يقول أخو الحنين إلى أخي الحنين الصغير: »ما بالك تتباطأ وتتردد في سيرك؟«.

لأن الأخيار حقاً لا يسألون العراة: »أين ثيابكم؟«.

ولا الذين لا مأوى لهم: »ماذا حلَّ ببيوتكم؟«.

العمـل

ثم تقدَّم حراثٌ فقال:

حدِّثنا عن العمل.

فأجابه قائلاً:

أنتم تعملون مطاوعةً للأرض ولروح الأرض.

أمَّا أخو البطالة فغريب عن الأرض وفصولها، وليس هو من موكب الحياة السائر بجلال عظيم وطواعية أبيَّة نحو اللا متناهي.

وأنتم، عندما تعملون، فكأنكم الناي يتحول همسُ الساعات في قلبه موسيقى عذبة.

وأيٌّ منكم يؤثر أن يبقى قصبةً خرساء في حين كلّ ما حواليه يغني معاً؟

يقولون لكم أبداً إن العمل لعنة ونكبة.

أما أنا فأقول لكم إنكم بالعمل تحققون بعضاً من الحلم الذي هو أبعد أحلام الأرض، وإن ذلك البعض أنيط تحقيقه بكم منذ أن ولد الحلم.

وأنتم، إذ تحيون بالعمل، تعبرون عن حبكم للحياة.

ومن أحبَّ الحياة بالعمل فقد وقف على أعمق سرٍّ من أسرارها.

ولكن إذا حملتكم آلامكم على أن تبصروا في الولادة رزية، وفي تقويم أود اللحم والدم لعنة مكتوبة على جباهكم.

فجوابي على ذلك هو أنَّ ما كتب على جباهكم لن يمحوه غير عرق جباهكم.

لقد قيل لكم كذلك إنَّ الحياة ظلمة. ولقد رحتم، لفرط ما بكم من تعب وملل، ترددون ما قاله لكم المتعبون والذين بهم ملل.

أما أنا فأقول لكم إن الحياة ظلمة حقاً إلا حيث يكون اندفاع.

وكل اندفاع أعمى، إلا إذا رافقته المعرفة.

وكل معرفة لا تجدي فتيلاً، إلا إذا تحولت عملاً،

وكل عمل لا خير فيه إلا إذا قامت به المحبة.

أمَّا إذا عملتم بمحبة فأنتم إذ ذاك تشدُّون أنفسكم إلى أنفسكم، وبعضكم إلى بعض، وإلى اللّٰه.

وما هو العمل المقرون بالمحبة؟

هو أن تحوك النسيج فتستل خيوطه من قلبك كما لو كانت حبيبتك سترتديه.

وهو أن تبني البيت بشوق ولهفة كما لو كنت تعده مسكناً لحبيبتك.

وهو أن تبذر البذار بتحنان وتحصد الزرع بفرح كما لو كانت حبيبتك هي التي ستأكل منه.

وهو أن تنفخ من روحك في كل ما تصنعه يداك.

وأن تعرف أن جميع الموتى المغبوطين قد تجمهروا حواليك، وأنهم يتتبعون كل حركة من حركاتك.

لكم سمعتكم تقولون، وكأنكم تتكلمون في منامكم: »إن الذي يعمل في المرمر، ويجسِّم نفسه في الحجر، لأشرف بكثير من الذي يحرث الأرض.

والذي يقبض على قوس السحاب ليبسط ألوانه على القماش في شكل إنسان، لأكبر قدراً من الذي يصنع الأحذية لأرجلنا«.

ولكنني أقول لكم - لا في المنام بل في يقظة الظهيرة - إنَّ الريح لا تخاطب السنديانة العتيَّة بلغة أعذب من تلك التي تخاطب بها أصغر وريقة من العشب،

وإنَّ العظيم حقاً هو ذلك الذي، بفرط محبته، يجعل من صوت الريح أنشودة بالغة العذوبة.

إنما العمل محبَّة كانت خفيَّة فبانت للعيان.

فإنَّ تعذَّر عليكم أن تعملوا بمحبة، وكنتم تعملون مكرهين ومشمئزين، فخيرٌ لكم لو هجرتم كل عمل، وجلستم عند باب الهيكل، وتقبلتم الصَّدقات من الذين يعملون فرحين.

لأنكم إذا خبزتم خبزاً، وكنتم غير مبالين بما تعملون، كان خبزكم مراً لا يشبع من جوع الناس غير النصف.

وإذا دستم العنب في المعصرة، وفي قلبكم حقد، كان حقدكم سماً في الخمر التي تستقطرون.

وإذا غنيتم حتى كالملائكة، وكنتم لا تحبون ما تغنون، فإنكم بغنائكم تصمون آذان الناس دون أصوات النهار، ودون أصوات الليل.

البيع والشراء

وقال تاجر:

حدِّثنا عن البيع والشراء.

فأجابه قائلاً:

إن الأرض تمنحكم خيراتها بغير انقطاع، وأنتم ما كنتم لتعرفوا الحاجة لو أنكم عرفتم كيف تملأون أيديكم.

ففي تبادلكم هبات الأرض تجدون البحبوحة والرضى. ولكنَّ التبادل، ما لم يجر بروح المحبة والإنصاف، قاد البعض إلى النهم، وجرَّ البعض إلى الجوع.

عندما يتلاقى في سوق المدينة العاملون منكم في البحر وفي الحقل وفي الكرم بالحائكين والخزافين وجامعي الطيوب،

فليضرعوا إلى روح الأرض العظيم لينضمَّ إليهم، ويكرس موازينهم والمعادلات التي يقيمونها بين قيمة وقيمة.

ولا تسمحوا لعقيمي الأيدي بأن يتدخلوا في ما تجرونه من صفقات، لأنَّ من شأنهم أن يقايضوكم كلاماً بأتعابكم.

بل عليكم أن تقولوا لهؤلاء وأمثالهم:

«تعالوا معنا إلى الحقل. أو فاذهبوا مع إخواننا إلى البحر وهناك ألقوا شباككم. والحقل والبحر سيسخوان عليكم سخاءهما علينا».

وإذا جاءكم المغنون والراقصون والنافخون في الناي - فاشتروا من هداياهم كذلك.

فهم أيضاً من جامعي الثمار والبخور، والذي يحملونه إليكم، وإن يكن من نسيج الأحلام، إلا أنه يصلح كساءً وغذاءً لأرواحكم.

وقبل أن تغادروا السوق تأكدوا من أنَّ أحداً لم يعد إلى بيته فارغ اليدين.

لأنَّ روح الأرض العظيم لن يهنأ له نوم على فراش الريح إلا إذا انقضت حاجة الأصغر والأخير فيكم.

الحريـة

وقال له الخطيب:

حدثنا عن الحرية.

فأجابه قائلاً:

رأيـتكم عنـد مـدخل المدينـة، وفي بيـوتكم، تسـجدون لحريتكم وتعبدونها،

كما يسجد العبيد لأسيادهم الطغاة ويمجدونهم حتى وإن كان نصيبهم منهم القتل.

أجل. لقد رأيت الأكثر حرية بينكم في حديقة المعبد وفي ظل القلعة يحملون حريتهم نيراً على أعناقهم وغلا في أيديهم.

وكان قلبي يدمي شفقةً عليهم. لأنكم لن تكونوا أحراراً إلا من بعد أن يصبح حتى شوقكم إلى الحرية إرهاقاً لكم، وإلا من بعد أن تكفوا عن التغني بالحرية كما لو كانت هدفاً واكتمالاً.

حقاً إنكم لن تكونوا أحراراً ما لم يكن لكم في كل يومٍ هم، وفي كل ليلة حاجة وحزن.

وما لم تمنطق هذه الأشياء حياتكم فتنفضوها عن كواهلكم وترتفعوا فوقها عراةً طليقين.

إذ كيف لكم أن ترتفعوا فوق أيامكم ولياليكم إذا لم تحطموا السلاسل التي، في بدء إدراككم، أحكمتم شدها حول ساعة ظهيرتكم؟

حقاً إن ما تدعونه حرية لهو الأقوى بين تلك السلاسل حتى وإن بهركم لمعانها في الشمس.

وماذا عساكم تنبذون غير نتفٍ من ذواتكم طمعاً منكم بالوصول إلى الحرية؟

إن يكن ما تبتغون التخلص منه شرعة جائرة، فاذكروا أنكم أنتم الذين كتبتموها بأيديكم على جباهكم.

وهذه الشرعة لن يتاح لكم الخلاص منها بحرقكم مجموعة قوانينكم، ولا بغسلكم جباه قضاتكم حتى وإن سكبتم عليها كل ما في البحر من ماء.

وإن يكن مبتغاكم أن تنزلوا طاغية عن عرشه، فاعملوا أولاً على تحطيم ذلك العرش الذي أقمتموه له في قلوبكم.

إذ كيف لطاغية أن يحكم شعباً حراً وأبياً ما لم يكن في حرية ذلك الشعب شيء من الاستبداد، وفي إبائه شيء من الذل؟

أو يكن ما تبتغون طرحه عنكم هماً من الهموم، فاذكروا أن ذلك الهم لم يفرض عليكم فرضاً، بل أنتم الذين اخترتموه لذواتكم.

أو يكن ما تسعون إلى الخلاص منه خوفاً من المخاوف، فلا تنسوا أن مقر ذلك الخوف في قلوبكم وليس في يد الشبح الذي تخافونه.

حقاً إن ما ترغبون فيه أو تخشونه، وما تهوونه أو تمقتونه، وما تسعون إليه أو تتهربون منه - إن كل هذه مقيمة فيكم، تتعانق نصف العناق لا كله،

وتتحرك في كيانكم أزواجاً متلاصقة كما يتحرك النور والظل.

حتى إذا تلاشى الظل عاد النور الذي ابتلعه فأصبح ظلاً لنور آخر.

وهكذا حريتكم، فهي إذ تنعتق من قيودها تعود فتغدو قيداً لحرية أكبر منها.

القانون

عندئذٍ تقدم منه محامٍ وقال:

ما قولك في القانون، أيها المعلم؟

فأجابه:

إنكم لتجدون لذة في سن القوانين.

ولكنكم تجدون لذة أعظم في انتهاكها. فحالكم مع قوانينكم هي حالة الصبية يبنون أبراجاً من الرمل على الشاطئ بجد ومثابرة فلا يلبثون أن يهدموها ضاحكين.

وفيما أنتم تبنون أبراجكم الرملية يأتيكم البحر بالمزيد من الرمل،

وعندما تهدمونها ضاحكين يضحك البحر كذلك معكم.

حقاً إن البحر يضحك أبداً مع السذج.

ولكن ما قولكم في الذين ليست الحياة عندهم بحراً، ولا القوانين التي يسنها الناس أبراجاً من رمل.

بل الحياة عندهم بمثابة صخرة، والقانون بمثابة إزميل، وهم لا ينفكون ينحتون به الصخرة لتأتي على صورتهم ومثالهم؟

ما قولكم في الكسيح الذي يكره الراقصين؟

وفي الثور الذي يحب نيره ويحسب الظبي والأيل في الغاب من المخاليق المتشردة؟

وفي الأفعى الهرمة التي تعذر عليها نزع جلدها فباتت تعيب على غيرها من الأفاعي العري وقلة الحياء؟

وفي الذي يبكر في الذهاب إلى العرس حتى إذا تخم من كثرة الأكل عاد من العرس وهو يقول إنَّ كل الولائم هنكٌ للقانون، وكل الذين يشتركون فيها يمتهنون الشريعة؟

ماذا عساني أقول في كل هؤلاء أكثر من أنهم - هم كذلك - يقفون في نور الشمس، ولكن ظهورهم أبداً للشمس؟

فهم لا يبصرون غير خيالاتهم، وخيالاتهم هي قوانينهم.

وهل الشمس لهؤلاء إلا جرم مهمته طرح الظلال؟

وهل امتثالهم للقانون غير طأطأتهم للرؤوس ثم رسمهم لظلالهم على التراب؟

أما أنتم الذين يسيرون ووجوههم نحو الشمس، فأي الظلال المرسومة على التراب تستطيع أن تستوقفكم؟

وأنتم يا رفاق الريح، أية آلة يقيمها الناس لمعرفة اتجاه الريح تستطيع أن تحدد اتجاهكم؟

وأي قانون بشري يمكن أن يقيدكم إذا أنتم حطمتم نيركم، ولكن ليس على باب سجن إنسان من الناس؟

وأي قانون ترهبون إذا أنتم رقصتم، ولكن من غير أن تتعثروا بسلاسل أي إنسان؟

ومن يجسر أن يقتادكم إلى المحكمة إذا أنتم مزقتم ثيابكم، ولكن من غير أن تلقوا بها في طريق أي إنسان؟

يا أهل أورفليس! في استطاعتكم أن تخنقوا صوت الدف، وأن تحلوا أوتار القيثار، ولكن من الذي يستطيع أن يأمر القبرة بألا تغني؟

الجريمة والعقاب

وعندها تقدم قاضٍ من قضاة المدينة، فسأله:

حدثنا عن الجريمة والعقاب.

فأجابه وقال:

إنما تذنبون إلى الغير، وبالتالي إلى أنفسكم.

عندما تنطلق أرواحكم هائمة مع الريح دونما حارس أو رفيق.

والذنب الذي تقترفونه إذ ذاك يقضي عليكم بأن تبقوا مدة خارج دار الأبرار وأن تقرعوا الباب فلا يفتح لكم.

كالمحيط هي ذاتكم الربانية.

فهي أبداً طاهرة من الدنس.

وهي كالأثير لا ترفع إليها إلا المجنحين.

بل كالشمس هي ذاتكم الربانية.

فهي تجهل مسالك المناجذ، ولا تدخل أجحار الأفاعي ولا هي وحدها التي تملأ كيانكم.

فالكثير فيكم ما يزال إنساناً. والكثير لم يبلغ بعد درجة الناسوت، بل هو كالمسخ الذي بغير صورة، والذي يمشي في نومه مع الضباب باحثاً عن يقظته.

وإني مكلمكم الآن عن الإنسان فيكم فهو الذي يعرف الجريمة وعقاب الجريمة، وليس ذاتكم الربانية ولا المسخ فيكم.

كثيراً ما سمعتكم تتكلمون عمن يقترف جرما بينكم كما لو كان ليس منكم، وكما لو كان غريباً عنكم ودخيلاً على دنياكم.

إلا أنني أقول لكم إنه نظير ما يتعذر على البار والصديق أن يسموا فوق الأبعد والأعلى فيكم.

هكذا يتعذر على الشرير والضعيف أن ينحدرا إلى ما دون الأدنى والأحط فيكم،

وكما أن ورقة واحدة على الشجرة لا تصفر إلا بمعرفة الشجرة كلها،

كذلك لا يستطيع المجرم أن يقترف جرماً إلا بالإرادة الخفية التي هي إرادتكم كلكم.

إنكم تمشون موكباً واحداً نحو ذاتكم الإلهية.

أنتم الطريق، وأنتم السالكون فيه.

وعندما يسقط أحدكم فإنما يسقط نذيراً للماشين خلفه بوجود حجر عثرة في الطريق.

أجل. وهو يسقط في سبيل الذين تقدموه كذلك. لأنهم، وإن كانوا أثبت منه قدماً وأوسع خطىً، إلا أنهم لم يرفعوا حجر العثرة من الطريق.

وأقول لكم كذلك، وإن ثقلت كلماتي على قلوبكم:

إن القتيل ليس بغير مسؤول عن قتله،

وإن المسلوب ليس بغير ملوم في سلبه،

وإن الصديق ليس بريئاً من صنائع الشرير،

ولا أبيض اليدين غير ملوث بقذارة المجرم.

أجل. كثيراً ما يكون المجرم ضحية من وقعت عليه جريمته.

وكثيراً ما يكون المدان حاملاً لأثقال الذين لم يدانوا قط ولا التصقت بهم تهمة.

إنكم لا تستطيعون أن تفرقوا بين العادلين وغير العادلين، ولا بين الصالحين والطالحين.

فجميعهم يمثلون معاً أمام عين الشمس، وينسجمون انسجام الخيط الأبيض والخيط الأسود في النسيج الواحد.

حتى إذا انقطع الخيط الأسود توقف الحائك عن عمله فتفحص النسيج كله، وتفقد النول كذلك.

إذا عنّ لأحدكم أن يسوق الزوجة الخائنة إلى المحاكمة،

فليزن قلب زوجها كذلك في الميزان، وليقس نفسه بالمقاييس.

والذي يفكر في جلد المذنب دعه أولاً يتفحص روح المذنب إليه.

وإذا شاء أحدكم أن يعاقب آخر باسم الصلاح، وأن يهوي بالفأس على الشجرة الطالحة، فليتفقد جذورها.

فهو لو فعل ذلك لوجد من غير شك أن جذور الشجرة الصالحة والطالحة، والمثمرة وغير المثمرة، تلتف بعضها على بعض في صمت قلب الأرض.

وأنتم أيها القضاة الذين يودون أن يعدلوا في أحكامهم، أيَّ حكم عساكم تصدرون على من كان شريفاً فالجسد ولصاً بالروح؟

وأيَّ العقاب عساكم تنزلون بمن يقتل الجسد فيمسي لذلك قتيلاً بالروح؟

وكيف تقاضون من كان غشاشاً في أعماله، وكان، إلى ذلك، مهاناً ومغموط الحق؟

وكيف تقتصون من الذين تبكيت ضمائرهم بات أشد هولاً عليهم من قبيح أعمالهم؟

أليس تبكيت الضمير هو العدل الذي يقضي به عين القانون الذي يسركم أن تكونوا في خدمته؟

وأنتم، مع ذلك، لا تستطيعون أن تجعلوا ضمير البريء يبكته، ولا أن تنزعوا التبكيت من قلب المذنب.

فالتبكيت يأتي من تلقائه في الليل ليوقظ المذنبين كيما يبصروا حقيقتهم.

وكيف لكم أن تفهموا العدل أيها الطامعون في فهمه ما لم تسلطوا على شتى الأعمال نوراً يكشف لكم كل مخبأتها؟

عندئذ فقط تدركون أن الساقط والذي لم يسقط هما في الحقيقة رجل واحد يقف في الشفق ما بين ليل ذاته القزمة ونهار ذاته الإلهية،

وتدركون كذلك أنَّ رأس الزاوية في الهيكل ليس بأرفع من أي حجر في أسفل الأساس.

المـوت

عندئذٍ تكلمت المطرة قائلة:

إنَّا نسألك الآن عن الموت.

فأجاب وقال:

تريدون أن تعرفوا سرّ الموت.

ولكـن أنَّـى لكـم أن تجـدوه مـا لم تفتشـوا عنـه في قلـب الحياة؟

إن البومـة المحجبـة عيناهـا بظلمـة الليـل لعميـاء عـن النهـار. فهي لا تستطيع أن تهتك الحجاب عن النور وسر النور.

إذا كنـتم تريـدون حقـاً أن تبصـروا روح المـوت، فـافتحوا أبواب قلوبكم على مصاريعها لجسد الحياة.

لأن الحياة والموت واحد، كما أنَّ النهر والبحر واحد.

إن معـرفتكم الصـامتة لمـا بعـد المـوت لتسـتقرَّ في أعمـاق آمالكم وأهوائكم.

ومثلما تحلم البذور التي تحت الثلج هكذا تحلم قلوبكم بالربيع.

ألا ثقوا بأحلامكم، لأن فيها تختبئ أبواب الأبدية.

إن خوفكم من الموت لشبيه بالرجفة التي تستولي على الراعي أمام مليكه وقد جاء يقلده وساماً.

أليس يغتبط الراعي، برغم رجفته، لأنه سيحمل شارة الشرف من الملك؟

ولكنه، مع ذلك، لا يستطيع إلا أن يفكر في رجفته قبل تفكيره في الشرف الذي سيناله.

وهل الموت إلا أن يقف الإنسان عارياً في الريح، وأن يذوب في الشمس؟ وهل انقطاع النفس غير إعتاقه من قلق مده وجزره كيما يتاح له أن يرتفع إلى أعلى وأن يتمدد ويسعى إلى الله طليقاً من كل قيد؟

إنكم لن تنشدوا خير إنشادكم إلا إذا شربتم من نهر الصمت.

ولن تباشروا تسلق الجبل إلا من بعد أن تدركوا القمة.

ولن ترقصوا حقاً إلا من بعد أن تضم الأرض أعضاءكم.

الـوداع

وأقبل المساء فقالت المطرة:

»تبارك هذا النهار، وهذا المكان، وتبارك روحك الذي كلمنا«.

فأجابها: »ألعلَّ الذي تكلم أنا؟ ألم أك سامعاً كذلك«؟

قال ذلك وانحدر من على درج الهيكل وتبعه الشعب. وإذ أدرك سفينته وقف على ظهرها.

ثم التفت إلى الجمع ثانية، ورفع صوته وقال:

يا أهل أورفليس، إن الريح لتأمرني بالانصراف عنكم.

ولا بدَّ لي من الانصراف، وإن لم يكن بي من العجلة مثلما في الريح..

إننا نحن معشر الهائمين الناشدين أبداً الطرق المقفرة من الرفاق، لا نبدأ يوماً حيث ودعنا يوماً أسبق. ولا يجدنا شروق حيث يتركنا غروب.

ونحن نحثُّ الخطى حتى حينما تهجع الأرض.

نحن بذور نبات عنيد، ولا تتسلمنا الريح وتذرونا إلاَّ من بعد أن يتم نضجنا وتمتلئ قلوبنا.

قصيرةً كانت أيامي بينكم، وأقصر منها كلماتي.

ولكن إذا تلاشى صوتي في آذانكم، واضمحلَّ حبي من ذاكرتكم، فإنني أعود إليكم ثانية،

وإذ ذاك أكلمكم بقلب ازداد غنىً، وبشفتين أكثر طواعية للروح.

أجل. سأعود مع المد.

وسأسعى لاكتساب فهمكم حتى وإن أخفاني الموت عنكم. ولفتني السكينة العظمى بجلبابها.

ولن يذهب سعيي جزافاً.

إن يكن في ما قلته لكم شيء من الحقّ فذلك الحق سيعلن ذاته بصوت أكثر جلاء من صوتي اليوم، وبكلمات أقرب إلى مدارككم.

إنني ذاهب مع الريح، يا أهل أورفليس، ولكن لا لأنحدر إلى فراغ العدم. وهذا النهار، إن لم يكن تحقيقاً لرغباتكم ومحبتي، فليكن عهداً حتى يجيء يوم آخر.

تتغير حاجات الإنسان. ولكنّ حبه لا يتغير، ولا رغبته في أن يقضي الحبُّ حاجاته.

إذن فاعلموا أنني سأعود إليكم من صميم السكينة العظمى.

فالضباب الذي ينحسر عن الأرض عند الفجر، تاركاً بعض الندى في الحقول،

يرتفع فيما بعد ليغدو سحابة ثم ليهبط على الأرض غيثاً.

وقد كنت شبيهاً بالضباب.

لقد طرقت شوارعكم في سكينة الليل، وولجت بروحي مساكنكم،

فكانت قلوبكم تنبض في قلبي، وأنفاسكم تجري على وجهي، وقد عرفتكم جميعاً.

أجل. عرفت أوجاعكم وأفراحكم وكانت أحلامكم في الليل أحلامي.

وكثيراً ما وجدتني بينكم كالبحيرة بين الجبال.

فكنت أعكس قممكم وسفوحكم، حتى وقطعان أفكاركم ومشتهياتكم.

ولكم ضجَّ سكوتي بقهقهة أولادكم، وانسابت فيه أشواق فتيانكم وفتياتكم انسياب النهر في السهل.

فما انفكت تغني حتى من بعد أن بلغت أعماقي.

بل لقد جاءني منكم ما هو أعذب من الضحك وأعظم من الشوق والحنين.

ذلك هو غير المحدود فيكم،

هو الإنسان الشاسع والبعيد الغور الذي لستم في جسده سوى خلايا وعضلات،

ذلك الإنسان الذي ليست كل أناشيدكم سوى نبضات صامتة في أنشودته،

والذي من رحابته ومداه رحابتكم ومداكم،

والذي أبصرته فيكم فأحببتكم.

وهل للحب أن يبلغ مدى لا ينطوي عليه مدى الإنسان الرحب؟

أم هل لأي رؤى، أو آمال، أو اعتداد بالنفس أن تحلق أبعد من ذلك المدى؟

والإنسان الشاسع فيكم يشبه سنديانة عتية مكسوة بأزهار التفاح.

فقدرته تشدكم إلى الأرض. وشذاه يرفعكم إلى الفضاء. وصلابته وصموده للعناصر يكفلان لكم الخلود.

قيل لكم إنكم كالسلسلة، وإنكم ضعفاء كأضعف حلقة فيكم.

ذلك نصف الحقيقة. أما نصفها الثاني فهو أنكم أقوياء كأقوى حلقة فيكم.

والذي يقيسكم بأصغر عمل من أعمالكم كالذي يقيس البحر بما في زبده من وهن.

والذي يدينكم بسقطاتكم كالذي يدين الفصول بتقلباتها.

أجل. أنتم كالمحيط.

ولئن اكتظت شواطئكم بالسفن المشحونة، العالقة بالرمال، والتي ترتقب المد لينتشلها، فليس لكم أن تعجلوا ساعات مدكم.

وأنتم كالفصول كذلك،

ولئن أنكرتم في شقائكم الربيع،

إلا أنَّ الربيـع الهـاجع فـيكم ليبسـم في نعاسـه لكـم ولا يحسب إنكاركم له إهانة.

لا تظنوا أنني أقول ما أقوله فيكم كيما يقول واحدكم للآخر: »إنه يمدحنا. وإنه لم يبصر غير الخير الذي فينا«.

إنما أخاطبكم بالكلام عما تفقهونه أنتم بغير كلام.

ومـا هـي المعرفـة الـتي نعـبر عنهـا بـالكلام إن لم تكـن المعرفة التي بغير كلام؟

إن أفكـاركم وكلمـاتي لأمـواج مـن ذاكـرة مختومـة انطبعت فيها كل سجلات أمسنا،

وسجلات الأيام السحيقة في القدم عندما لم يكن لـلأرض علمٌ بنا ولا بذاتها،

وسجلات الليالي التي فيها تكونت الأرض من الخواء.

لقـد جـاءكم حكمـاء ليعطـوكم مـن حكمـتهم. أمـا أنـا فقد جئت لآخذ من حكمتكم.

وها أنا قد وجدت عندكم ما هو أعظم من الحكمة:

لقـد وجـدت فـيكم روحـاً كـأنـه اللـهب، وهـو أبـداً يمتـد وينمو في ذاته ومن ذاته،

في حين أنتم، غير آبهين بامتداده، تندبون أيامكم الذاوية.

إنها الحياة تسعى إلى الحياة بأجساد تخشى الموت.

ولكن لا قبور ههنا.

فهذه الجبال والسهول ليست سوى مهدٍ ونقطة انطلاق.

كلما مررتم بحقل دفنتم فيه أسلافكم تأملوه جيداً. وعندئذٍ تبصرون أنفسكم وأولادكم وقد تشابكت أيديكم في الرقص.

حقاً إنكم كثيراً ما يأخذكم الهرج والمرج وأنتم لا تعلمون.

وجاءكم آخرون فما وهبتموهم أكثر من ثروة وسلطان وجاه لقاء ما بذلوه من وعودٍ لإيمانكم.

أما أنا فالذي بذلته لكم كان اقل من وعد، وكنتم مع ذلك، أوفر سخاء نحوي.

لقد أعطيتموني عطشي الأكبر إلى الحياة.

وهل من عطية ينتفع بها إنسان أعظم من تلك التي تجعل من جميع غاياته شفتين يحرقهما العطش، ومن كل حياته ينبوعاً لا ينضب؟

وإنما فخري وثوابي لفي أنني كلما دنوت من الينبوع لأطفئ عطشي وجدت مياهه عطشى،

فتشربني إذ أنا أشربها.

لقد خالني بعضكم متكبراً وشديد الحياء فلا أتقبل من أحد هدية.

أجل. إنني من الأنفة بحيث لا أرضى أن أتناول أجرةً. ولكنني لا أرفض الهدية.

وأنا ، وإن اقتت بالثمار البرية بين التلال أيام كنتم تودون لو أجلس وإياكم إلى موائدكم،

وإن نمتُ في رواق الهيكل وكنتم تؤثرون لو أنام في أسرَّتكم،

إلا أنَّ اهتمامكم البالغ بأيامي ولياليَ جعل الطعام حلواً في فمي، ومنطق نومي بالرؤى.

لأجل هذا أباركم:

لأنكم تعطون الكثير ولا تعرفون أنكم تعطون شيئاً على الإطلاق.

حقاً إن العطف الذي ينظر إلى نفسه في المرآة لعطف ينقلب حجراً.

وكل عمل صالح يعلن عن ذاته بأسماء عذبة لا يُنجب إلاَّ اللعنة.

ودعاني بعضكم أخا انفراد وعزلة وقد أثملته وحدته.

فقال ذلك البعض: »إنه رجل يعقد المؤتمرات مع الشجر في الغاب، لا مع الناس«.

»وهو يجلس وحده على قنن التلال وينظر إلى مدينتنا من عل«.

وأنا في الواقع كنت أتسلق التلال وأسير في الأماكن البعيدة.

وكيف كان لي أن أبصركم إلا من علو شاهق ومن مسافة بعيدة؟

وكيف لأي إنسان أن يكون قريباً إلا إذا كان بعيداً؟

وآخرون كانوا ينادونني بغير كلام ويقولون:

»أيها الغريب الهائم بالأعالي التي لا تدرك، لماذا تسكن القمم حيث النسور تبني أوكارها«؟

»لماذا تطلب ما لا يُدرك«؟

»وأي العواصف ترجو أن تصطاد بشباكك«؟

»وأي الطيور الأثيرية تسعى لاقتناصها في السماء«؟

»تعال وكن واحداً منا«.

«انزل من علائك وأشبع جوعك من خبزنا ، وأطفئ عطشك من خمرنا».

هكذا كانوا يقولون في عزلة نفوسهم.

ولو أنَّ عزلتهم كانت أبعد غوراً لأدركوا أنني كنت أفتش عن السر في أفراحكم وآلامكم.

وكنت أصطاد ذواتكم الكبرى التي ترود السماء.

إلا أن الصياد كان الطريدة كذلك.

لأن الكثير من سهامي ما انطلق من قوسي إلا ليعود إلى صدري.

والذي كان يحلق في الفضاء هو الذي كان يزحف على الأرض.

لأنني إذا كنت أبسط جناحي في الشمس، كان ظلي سلحفاة على التراب.

وأنا المؤمن كنت المشكك أيضاً.

لأنني كثيراً ما وضعت إصبعي في جرحي كيما يتعاظم إيماني بكم وتتسع معرفتي لكم.

وها أنا أقول لكم بهذا الإيمان وتلك المعرفة:

إنكم أعظم من أن يحصركم جسد ، وأرحب من أن يستوعبكم مسكن أو حقل.

فالذات التي هي أنتم تسكن أعلى من الجبال وتطوف مع الريح.

وما هي بالمخلوق الذي يدبّ في نور الشمس طلباً للدفء. أو يحفر الأنفاق في الظلام طلباً للأمن والسلامة. ولكنها شيء طليق. إنها لروحٌ يغلف الأرض ويجري في الأثير.

إن يكن كلامي هذا غامضاً ، فلا تحاولوا أن تجعلوه صريحاً.

فبداية كل شيء غامضة وغائمة. أما نهايته فلا.

وإنه ليسرني أن تذكروني كبداية.

فالحياة وكل ما فيها تنشأ في الضباب وليس في البلورة.

ومن يدري، فقد لا تكون البلورة غير ضباب في طور الانحلال؟

إني أودكم، إذا ما ذكرتموني، أن تذكروا ما سأقوله الآن لكم:

اذكروا أن ما يبدو لكم كما لو كان أضعف ما فيكم وأشده حيرة لهو في الواقع أقوى ما فيكم وأصلبه عوداً.

أليس أنَّ نفسكم هو الذي شاد وشدَّد عظامكم؟

أليس أنَّ حلماً لا يذكر أحدٌ منكم أنَّه حلمه هو الذي بني مدينتكم وكوَّن كل ما فيها؟

وأنتم لو كان لكم أن تسمعوا همس ذلك الحلم لما سمعتم أي صوت عداه.

ولكنكم لا تبصرون ولا تسمعون. ومن الخير أن يكون الأمر كذلك.

فالحجاب الذي على عيونكم سترفعه في النهاية اليد التي حاكته،

والطين الذي يسطم اليوم آذانكم ستخرقه اليد التي جبلته.

وعندئذٍ تبصرون،

وعندئذٍ تسمعون.

وإذ ذاك لن تحزنوا لأنكم كنتم عمياناً، ولن تأسفوا لأنكم كنتم صُماً.

لأنكم في اليوم الذي فيه تبصرون وتسمعون ستتكشف لكم الغايات الخفية في كل شيء.

وستباركون الظُّلمة كما تباركون النور.

ومن بعد أن فاه بهذه الأشياء التفت حواليه فأبصر ربَّان سفينته واقفاً بجانب الدفَّة وهو يرسل نظراته آناً إلى الشراع وآونة إلى الأفق البعيد.

فقال:

إن ربَّان سفينتي لصبور وأيّ صبور.

فالريح تهبّ، والشراع يضطرب، حتى الدفة تطالب بيدٍ تديرها.

أمَّا هو فينتظر سكوتي بهدوءٍ وصبر.

وهؤلاء ـ الملاحون ـ ملاحو سفينتي ـ الذين سمعوا جوقة البحر الأعظم ـ إنهم كذلك سمعوني صابرين.

ولكنهم لن ينتظروا بعد الآن.

فأنا مستعد.

لقد بلغ الجدولُ البحر. وها هي أمّه الكبرى تضمه ثانية إلى صدرها.

الوداع يا أهل أورفليس.

لقد انتهى هذا النهار.

وهو ينغلق الآن علينا كما تنغلق زنبقة الماء على غدها.

إنا سنحتفظ بما أعطيناه ههنا،

وإن هو لم يكفنا ، فعلينا إذ ذاك أن نعود فنجتمع ثانية ، وأن نبسط أيدينا معاً إلى النهر.

لا يغربنّ عن بالكم أني سأعود إليكم.

هنيهة بعد ، ويعود حنيني فيجمع الطين والزبد لأجل جسد آخر.

هنيهة بعد ـ لمحة استراحة على الريح ـ وتلدني امرأة أخرى.

وداعاً يا أهل أورفليس، ويا شباباً صرفته معكم.

أمس تلاقينا في الحلم.

لقد غنيتم لي في وحدتي، وبنيت من أشواقكم برجاً في السماء.

أما الآن فقد هرب النوم منا ، وانتهى حلمنا ، وفات وقت الفجر.

وها نحن في الظهيرة، ويقظتنا التي كان نصفها ما يزال غفلة قد اكتمل نهارها. وأصبح لزاماً علينا أن نفترق.

وإذا اتفق لنا أن نجتمع مرة بعد في شفق الذكرى فسنتحدث من جديد ، وستنشدونني أنشودة أعمق من كل ما أنشدتمونيه حتى اليوم.

وإذا اتفق لأيدينا أن تلتقي في حلم آخر فسنبني برجاً آخر في السماء.

وإذ قال ذلك أومأ إلى البحارة فرفعوا المرساة في الحال، وحلوا السفينة من مرابطها وانطلقوا بها ووجهتهم المشرق.

فارتفع هتاف من الشعب وكأنه من قلب واحد. وتلقف الشفق الهتاف وأرسله فوق البحر كصوت أبواق كثيرة.

ولم يبق صامتاً غير المطرة التي لبثت تحدق إلى السفينة حتى توارت في الضباب.

ومن بعد أن تفرق الجمع بقيت وحدها على الشاطئ وهي تردد قوله:

»هنيهة بعد - لمحة استراحة على الريح - وتلدني امرأة أخرى«.

الفهرس

النبي